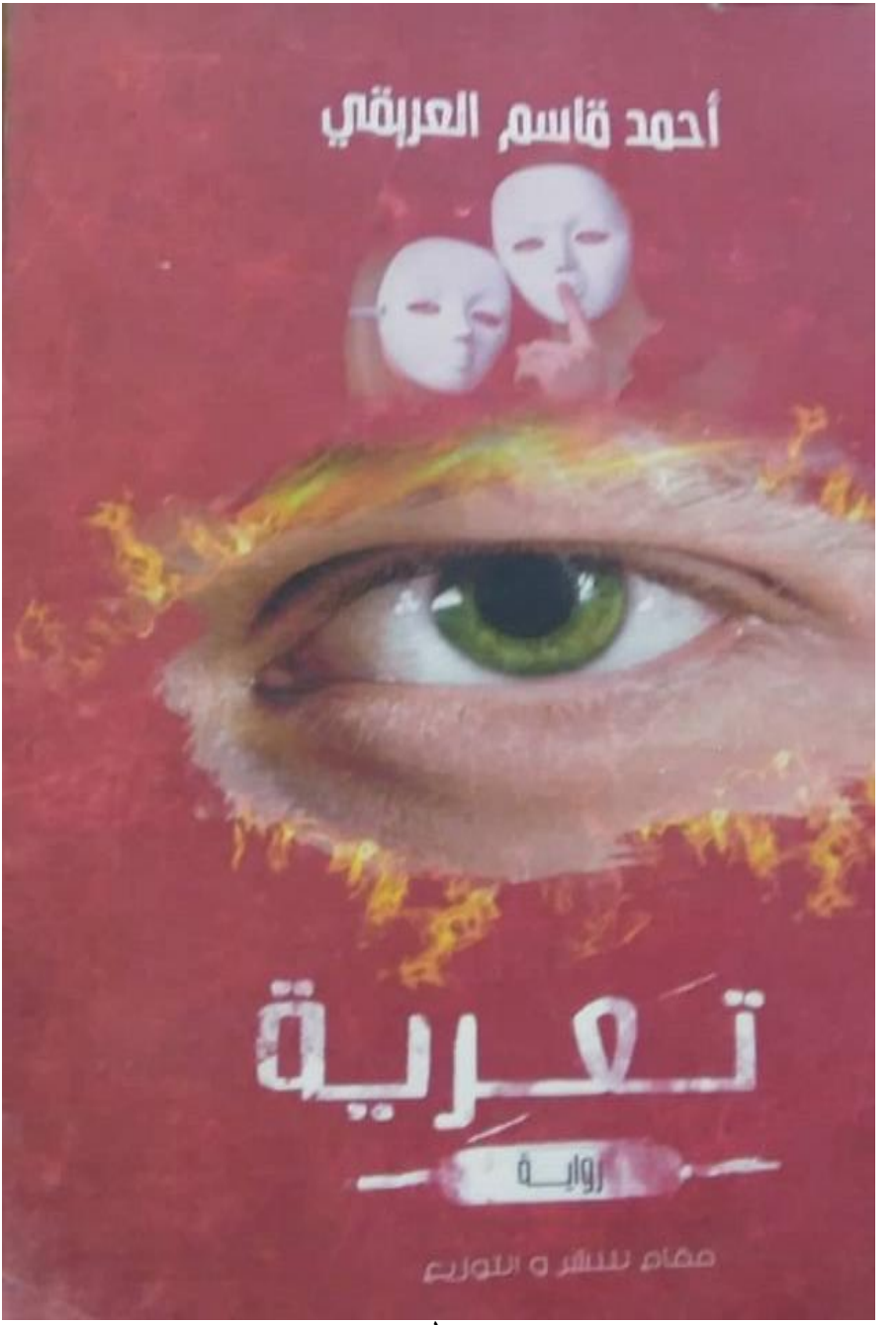
أحمد قاسم العربقي
تعرية
رواية
مقام للنشر و التوزيع

الكتاب: رواية تعرية

المؤلف: أحمد قاسم علي العريقي

التصنيفات: روايات

الطبعة الأولى، عن مقام للنشر والتوزيع- مصر

رقم إيداع: ٥-٩٠-٦٤٦٣-٩٧٧- ٩٧٨ ISBN

طبعة ثانية: ٢٠١٨م عن نادي القصة- المقة- صنعاء

رقم إيداع: ٨٠٧

جميع الحقوق والطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمؤلف لا يسمح بإصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نقله بأي شكل من الأشكال دون خط مسبق من الناشر

"عندما يخلو الذهن من الأسئلة تصبح الرؤيةُ واضحةً، وذهنك صاف، وأبواب البصيرة نظيفة ومفتوحة، وفجأة ... يصبح كل شيء شفافاً. تستطيع أن تغوص في العمق حيثما نظرتَ، فنظرتك تخترق إلى المركز، إلى الجوهر ...وهناك فجأة ستجد نفسك .ستجد نفسك في كل مكان .تجد نفسك في صخرة إذا نظرت إلى العمق، العمق الكافي"

أوشو

حدثتني والدمع يترجرج في عينيها، يكاد يسيل على خديها. قالت: "أنا نجوى زوجة صديقك عبد الفتاح، وهذه نجاة ابتنا الكبرى". وقفت ترحيباً بعقيلة صديق الصِّبا وتركتُ المُذكرة جانباً التي كنتُ أعدها لموكّلي... لأقدّمها إلى المحكمة. قدّمتْ لي ملفاً أبيض يحتوي على بضعة أوراق وهي تقول:

– يحتوي هذا الملف على مخطوطة كتبها عبد الفتاح، خلال إقامته في مصحّة السجن المركزي قبل أن يختفي منها، لم يطّلع عليها أحد حسب رغبته، قد تجد فيها شيئاً يساعدني على رفع قضية ضد إدارة المصحة، فزوجي يثق بك كثيراً وقد أخبرني أن وصيته لديك. حين سألتها عن آخر زيارة لزوجها، عضّت شفتها السُّفلى أسفاً، وقالت:

– ذهبتُ آخر مرة لزيارته اليوم الثالث من اغتيال الرئيس، بصحبة ابنتنا نجاة. كانت حالته النفسية سيئة وازداد حُزنه حين قالت له نجاة: "لم يكتفوا بقتله، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك، قالوا قُتل في مخدعه، بجوار امرأتين فرنسيتين" عندها حزن عبد الفتاح وقال بأسف عميق: "يا للقتلة لقد وصموا الشرفَ بالعارِ، قذفوه بالفُحشِ وهمُ الفُحشُ والرذيلة..." وأفرحنا بخبر خروجه خلال بضعة أيام.

استلمتُ منه آخر ما خطّته يده، ثم ودّعناه والفرحة لخروجه تبدد سُحب الحزن في حياتنا. انتظرنا عودته إلى منزله، لكنه لم يعُد. لمّا ذهبتُ كعادتي إلى المصحة، للاطمئنان عليه لم أجده. سألت عنه أحد رفاقه المرضى، رد هامساً:

– بعد سماعه خبر اغتيال الرئيس ظل يصرخ ويردد: "لم يصدقني لقد أخبرتُه... قتلهُ المجرمون. وكانت ترتاده الكوابيس في منامه. جاء الممرضون وأخذوه، ثم أعادوه بعد ساعة وهو يمشي بصعوبة، أظنهم صعقوه بالكهرباء لم يعد يتحدث معنا، ولا يسمع لأحد حتى أنه لم يعُد يعرفنا، وفي اليوم التالي لحدوث الشغب في المصحة كنا معاً في ساحة المصحة، لكنه لم يعُد إلى سريره واختفى هو ومرضى آخرون"

مسحت نجوى دموعها، وأخذت تقول لي:

– أخبرتني إدارة المستشفى إن عبد الفتاح هرب من المصحة، هو ومرضى آخرون واعتقدوا أنه عاد إلينا، وهم الآن يفتشون عن الفارين. وأعقبت كلامها بكاءً مريراً. بعد أن خرجت من مكتبي أستبد بي الفضول لأعرف ما يحتوي هذا الملف، الذي يعود لصديق الدراسة في الصِبا وقد ألفتهُ فريداً في تأمّلاته منذ الصِغر. فتحتُ المخطوطة ورِحت أقرأ على عجلة من أمري، فقرأت في وسط الصفحة الأولى "أسرار تحت المجهر، بوح، تعرية" يبدو أنه كان سيختار أحد العناوين ليكون عنواناً لكتابه هذا، والذي اختير فيما بعد "تعرية" لِمَا وجدناهُ مناسباً لقصته الغريبة والمُدهشة، عن الوجه الآخر من النفس البشرية. طويت الصفحة الأولى، وبدأت أقرأ ما خطتهُ يد عبد الفتاح سعيد.

الفصل الأول

الرقصُ على شاطئ المتاهة

(ترقصُ النفس على حافةِ الأشياء، إمّا أن تعود إلى الوراء، أو تنزلقَ لتكتشف وجهاً آخراً من الحياة)

* ١ *

بعد أن رفضتُ وسم رأسي بالنار على يد فقيه القرية، لم أستطع أن أفلت من إلحاح أهل القرية لزيارة ضريح ولي الله "الباهوت"، لطرد الجن من جسدي. ابتهجتْ نجوى بهذا الخبر، وهذا ما كانت تسعى إليه. يبعد ضريح الباهوت عن قريتنا مسيرة نصف يوم مشياً، ذهاباً وإياباً. مازال في مُخيلتي وأنا فتى حين حضرتُ جَمْعهُ[1] السنوي برفقة والدي مع فوج من أهالي القرية والقُرى المجاورة، يتقدمنا أربعة أخدام (المهمشين)، يقرعون طبولهم الكبيرة. يُسمّى هذا الحشد البشري الراجل "مَدْخَل"، نمشي كسرية حرب نشهر السيوف والخناجر عالياً فوق رؤوسنا، ومن ليس لديه سيفه، ينبغي عليه أن يحمل فرعاً من شجرة ونحن نرقص رقصة الحرب في مشيتنا.

وصلت سريتنا قبل الظهيرة ونحن نتفاخر بها. كان حشداً يضج كثير من الناس والدواب، صعدوا الجبل الشاهق من كل حدب وصوب. منهم الباعة وبضاعتهم المزجاة من كل نوع، بسطوها في العراء حول الضريح، تزاحموا على رقعة صغيرة من الأرض في قمت الجبل. وكان هناك أطفال يزهون بلعبهم على سجيتهم، ترى الفرحة في وجوههم ما لم ترها في العيد. رأيت ثوراً، قد ذُبح والطهاة يعدونه لمأدبة كبرى للعشاء لمن سيبقى لقراءة مولد الليلة الأولى، فهناك ثلاثة ليال تقام فيها الموالد.

---

[1] زيارته السنوية

تجمّعت عدة "مداخل" من مناطق مختلفة بعد أن تنافسوا في عدد أفرادها وعدتها وطبولها المدوية. تسنى لي مشاهدة بعض الزوار وهم يتحلقون في دائرة واسعة، يقرأون مولداً دينياً بصوت عال في مدح الرسول محمد (ص) منتصبي القامة تتقاطع أيديهم حول بطونهم. ذاك المولد الذي يأخذك إلى عالم التجلّي، وفي خضم ذلك التفاعل مع قراءة المولد، قفز فجأة شاب (خادم الولي) إلى وسط الدائرة، قابضاً خنجره الحاد وهو يرتعش. ظل ينظر في لمعان الخنجر وهو يرفعه عالياً أمام عينيه، وأخذ يضرب كتفيه عدة مرات بشفرة الخنجر وهو يصيح بصوت عالٍ: "يا باهوت..." وبينما كانت الدائرة تتحرك رويداً نحو الضريح، كان هو يتحرك معها ومستمراً في طعن كتفيه، دون أن نرى دماً يسيل. ما كنا نراه سوى خطوطاً حمراء في كتفيه فقط! لمّا وصلت الدائرة إلى باب الضريح، أشتد الطعن أكثر وأصبح الخادم كالعفريت يخيف الناس بصوته ونظراته وهزّاته.

اكتمل المولد وبرز ثلاثة مجاذيب بطبيلاتهم[٢]، أعمارهم تناهز الخمسين من العمر، يهزونها بإيقاع خاص وهم يرتعشون بعصبية يستنجدون بالولي بصوت عالٍ. رأينا أحدهم يغرز حديدة حادة في عينه اليمنى، والثاني في لسانه والثالث بين فكيّه في منظر مُخيف، وهم ينادون باسم الباهوت. أمعنت النظر فلم أر أثر جرح لتلك الطعنات. كانت دهشتي لا توصف فطفولتي لم تشهد مثل ذلك المشهد.

[2] طبول صغيرة ذو جهتين

* ٢ *

نهضت باكراً وتناولتُ وجبة الإفطار، أخذت وجبة إضافية ودسست ازميلاً خفية في جرابي؛ لغرض في نفسي. وفي الطريق اصطحبتُ معي الرجلين اللذين قد تجهزا لمرافقتي إلى ضريح الباهوت. مررنا على قُرى عِدة ونساء في المروج وهن يخصفن الحشائش لدوابهن. سمعت إحداهن تدندن:

– *ألفينْ سلامْ يسرحْ مع السحائبْ.. إلى الذي خلف الجبالِ غائبْ.*

مشينا حوالي ساعة في وادي نخوض المياه في جدوله، يضيق في أماكن ويتسع في أماكن أخرى، يزهو بالفواكه والخضروات. ثم يمّمنا شطرنا نحو الجبل حيث يتربع الضريح في ذروته، ونحن نصعد قابلنا في الطريق نساءً يسرعن عائدات إلى ديارهن بعد زيارتهن الولي والتبرُّك به وإعطاء النذور. كانت السماء ملبدة بالغيوم، تبدو إنها ستمطر. وفي مكان ما عرض الجبل، شاهدنا مجموعة من القرود تقيم في كهوف الجبل.

وصلنا إلى الضريح عند الظهيرة وهزيع الرياح الباردة تهب بشدة. وجدت قُبته الكبيرة كما عهدتها لم يعترها شيء ماتزال ببياضها الناصع، والبِركتين اللتين أمام الضريح، لم يؤثر فيهما الزمن. كان هناك ثلاثة رجال وأربع نساء، يتمتمون بكلام غير مسموع حول الضريح.

دخلنا الضريح، وجدنا امرأة تبكي، تدعو بالشفاء لابنها. انتابني أسف عميق لمعتقداتها الخاطئة، وفي الجانب الآخر كانت خادمة الولي في الستين من العمر تقريباً، تجمع النذور المقدمة للولي: سمن، شموع، بيض... رحبت بنا وهي تضيء الشموع على القبر. منحها رفيقي ريالين وهمس لها ... وهو يشير نحوي. شابني إحساس بالخيبة وهي تشير إليّ بالجلوس أمامها، ثم وضعت يدها فوق رأسي ودعت الولي كي يشفيني مما أعاني منه، وأنا أضحك في نفسي أتوانى عن إظهار سخريتي ثم أعطتني زيتاً من زيت الولي لأدهن به جسمي. أرعدت السماء وهطل المطر على الجبال البعيدة فخرجت خادمة الولي وتوجهت نحو قرية قريبة، ولم يبق حول الضريح غيري أنا والرفيقان. أخبرت الرفيقين باطلاعي عن وجود عِدة قبور للباهوت في أماكن مُتفرقة، قالا لي:

– نعم، نعرف ذلك. ضحكتُ متسائلاً:

أتُرى في أي قبر يوجد فيه رفاته ؟ دُهشا من استنتاجي، قال أحدهم بخوف وصوت منخفض:

– ماذا تقول، سيصيبك الولي باللعنة، لا تفكر في هذا الأمر، سنصاب معك أيضاً، وتوسّل إليّ لكي أصمت وهو يقول:

– إن الأولياء لا يموتون.

قلت بحذر: إذا حفرتُ ثقباً في القبر ووجدت القبر من دون الرفات؟ عندئذ اعتراهما الخوف وفرّا من أمامي مذعورين وهما يُشيران بجنوني.

لـم أسـتطع الـتخلّص مـن فكـرة نـبش القبـر، انتظـرت إلـى أن ابتعـد الـزوار عـن الضـريح، وأسـرعت أدخـل الضـريح بخفـة ووجيـب قلبـي يـزداد مـن الخـوف. قمـتُ بـاقتلاع حجـر مـن أحـد جوانبـه بالإزميـل ويـداي ترتجفـان. حينهـا تسـربت رائحـة غريبـة مـن القبـر وكـدت أعطـس، لكننـي منعـت نفسـي عـن العُطـس، ثـم اقتلعـت حجـراً آخـر مسـتطيلاً. كنـت متوتراً وجبيني يتصبب عرقاً.

توقفـت حـين أحسسـتُ بحركـة، تلفّـتُ يمنـة ويسـرة ورأيـت رجـلاً مُقـبلاً، فسـيطر علـيّ خـوف رهيـب. حينهـا قلـت لنفسـي "كشـفني الـولي" وبسـرعة البـرق أعـدت الحجـر مكانـه، وغطيـت الحفـرة بردائـي، جلسـت هنـاك رافعـاً يـديّ بالـدعاء. لاحـظ الزائـر رعشـة يـديّ وتبسـم ظنهـا تضـرعاً للـولي، ثـم ذهـب يطـوف مـرة بجـوار القبـر وأخـذ يتمـتم بكـلام ثـم خـرج مبتعـداً عـن الضـريح. تنفسـت الصـعداء ومسـحت العـرق عـن جبينـي، وأحسسـت بهـواء حـار يخـرج مـن جسـدي. ضـحكت فـي نفسـي وقلـت " لقـد كـاد الخـوف أن يفضـح أمـري، لتـوهمي أن الرجـل الزائـر أوحـى إليـه الـولي لفضـح فعلتـي، عـدت إلـى عملـي بخفـة وقـد هـدأ تـوتري إلـى أن جـلاء لـي قـاع القبـر. فغـر فمـي حتـى أننـي توقفـت عـن التـنفس لبرهـة مـن الـزمن، حـين رأيـت القبـر دون رُفـات، خاليـاً تمامـاً. منّيـت نفسـي لـو كـان رفيقـاي معـي ليشـهدا مـا شـهدته. رحـت أعيـد الحجـر مكانـه سـريعاً وخرجـت مهـرولاً، قبـل أن يُكتشـف أمـري. شـاهدني رفيقـاي وأنـا أحـثّ الخطـى علـى غيـر عـادتي، وأضـحك بصـوت عـالٍ مـن فعلتـي ومما اكتشـفته.

كنتُ أود أن أناديهم لنعود معاً، لكنهما أسرعا في العودة، لا أدري هل خافا مني أم من لعنة الولي.

خلال عودتي إلى القرية، مررت بأناس وهم يرشقونني بالنظرات بصمت مريب، لكنني كنت أسمع حديثهم في رأسي "هذا غريب على قريتنا... تراه مجنونا تاه... إنه يحدّث نفسه". ظننت أن الجن توسوس لي، وصدقّت للحظة أن الباهوت قد نال مني.

* ٣ *

وأنا في الطريق وقت الأصيل، أتنقل فوق أحجارها وانحداراتها الوعرة، مررت على مكان يُدعى (قُصيله واعود)، بجوار الطريق المؤدي إلى الضريح في منطقة تسمى (هيجة الجن) التي لا يحتطبها حطّاب أو يرعى بها راعٍ. وجدت الحصى والعيدان قد أزيحا من فوق القبر، وهناك حُفرة دائرية ملساء على عمق الحفرة. وقد قيل مسبقاً إنّ رجلاً يهودياً دُفن في هذا المكان، فكان العابرون الذين يمرون بجوار قبره، يرمونه بحجر مع عود صغير على قبره.

تراكمت الأحجار الصغيرة مع العيدان عبر عشرات السنين إلى أن تكدّست كومة كبيرة. حين رأيت تلك الحفرة، أيقنت بأن أحداً ما نبش القبر. جلست أفكر في نبش القبر "أتُرى هل عمل أحد مثلي ليكتشف الحقيقة؟". وأنا أمعن النظر في الحفرة أقبل نحوي راع أسمر يناهز الثلاثين من العمر تقريباً، يلبس قميصاً وفوطة على رأسه شال. سألته

عمّن نبش القبر؟ أخذ الراعي يضحك عالياً خارج حدود اللباقة وبانت أسنانه السوداء، ولمّا توقف عن القهقهة راح يمسح عينيه ثم قال:

– يا رجُل لم يكن هناك قبر.

دهشتُ من حديثه ثم سألته:

– ماذا كان إذا؟!

طغى على وجهه أسف عميق وقال:

– كان هناك كنز كبير، ثم أشار إلى الأثر الأملس الدائري في الحفرة، يعود لجفنة كبيرة تم نزعها عن ذلك الأثر وأضاف: هكذا هُم الجن يأتون في المنام لمن يشاؤون من الناس، ويشيرون له بالكنوز المدفونة. آه، لو تعلم يا سيد كم سنين جلست فوق هذا الكنز وأنا أرعي أغنامي. ثم أخذ يضرب كفاً بكف، وهو يقول بأسف:

– ضاع الكنز من تحتي قدمي... واغرورقت عيناه بالدموع. كان على وشك البكاء.

سألته عن اسمه، فقال:

– أسمي "ناجي الراعي" ثم سألته عن الحصى والعود، التي كُنا نرمي بها فوق القبر؟ أبتسم بسخرية وهو ينكُت عصاه في الأرض بقوة وقال:

–كان ذلك ذكاء من صاحب الكنز يا سيدي ليخدع الناس، ويكون علماً لكنزه فيما بعد، وكما ترى هذا القبر، بجوار طريق القوافل المرصوفة بالأحجار، المؤدية إلى قلعة الملك المنصوري.

* ٤ *

ذهب الراعي يجمّعُ قطيعه إلى جوار القبر، وكنت أنا أنظر إلى تلك القلعة الحصينة في قمة جبل الصلْو، التي عُرفت بقلعة الدملوة، ينظر المرء منها بالمنظار حتى البحر الأحمر. ارتبط زمن بنائها بالدولة الحميرية وتعاقب عليها حكّام اليمن قبل أن تتهدم مدرجاتها المغروسة في عرض الجبل الشاهق. كانت المقر الأول لدولة بني رسول قبل أن ينتقلون إلى عُدينة (تعز). لها طريق مرصوفة بالحجارة تمشي عليها القوافل عابرة جبال شوكة الشاهقة، ثم تنحدر إلى قُرى الأعروق إلى أن تصل وادي الأعمور ومنها تنطلق عبر وادي الأثاور ثم إلى لحج حتى تصل عدن، ولها طريق آخر جهة منطقة (الدِّمْنَة) أيضاً. ما زالت في مُخيلتي أحد أساطير تلك القلعة، التي تتداولها ألسن الناس. {أن رجلاً زاهداً صاحب كرامات يدعى صالح بن عُمر ويُلقب "بالخلّي"، ولد عام (٧٩٨) هجرية، يقطن في عزلة الأعروق، قرية "القُلّة". ومازال ضريحه بقبته الشامخة قائماً إلى الآن. غضب الملك المنصوري يوماً عليه، وحبسه بين السجناء القابعين في سجن القلعة منذ عدة سنوات. حينما شاهد الخلّي السجناء، رثى لحالهم وهم يعانون من السغب والدنف ومنهم كان يرسف بقيده التي تركت بصماتها على اقدامه. غضب الخِلّي ودعا على القلعة "يا قلعة المنصوري دوري، دوري، حلّقي وطيري" فاهتزت القلعة وبرز من جانبيها صخرتان عظيمتان كأنهما جناحين. خاف الملك حين أحس بقلعته تهتز. عرف أن الرجل الصالح دعا عليه، استدعاه خشية منه والتمس منه السماح وسأله أن يطلب ما شاء منه. قال الخّلي:

-الآن حصص الحق، لا أريد مالاً بل أريدك أن تفرج عن هؤلاء المساجين. أطلق الملك سراحهم جميعاً وأهداه السجناء حقولا كثيرة، وأصبح الخِلّي أغنى رجل في المنطقة، يمتلك حقولاً في أماكن شتى، وتعود ثمارها لفعل الخير}. ما زالت تلك القلعة أثراً باق حتى اليوم بكنوزها التي لم تكتشف بعد، يصعب على المرء تسلقها بعد أن تهدمت مدرجاتها.

* ٥ *

لَملم الراعي أشتات قطيعه وأعادهم إلى جوار قبر قُصيلة. وقفت الشياه حولي وكان هناك كبش كبير الحجم يُحدّق في عيني خفتُ أن ينطحني، شعرت بنظراته تنفذ في عيني بقوة وأحسست بدوار أخذني إلى عالم آخر غير عالمنا، وللحظة رأيت نفسي كبشاً تتدلى خلفي آليتي الطويلة وأنا أقف على أربع، أتساءل بدهشة كبيرة: "يا للغرابة كيف صرت كبشاً، مستحيل، مستحيل! أيمكن أن يكون الباهوت مسخني كبشاً؟ هل أنتقم مني." ورحت ألوم نفسي بحزن كبير وداهمني البكاء: ليتني لم أنبش قبره... صدق أهل القرية، لقد كانوا على حق إن الأولياء لهم كرامات حتى بعد موتهم. بقيت هكذا بين عالمين إلى أن سمعت صوت الراعي يناديني فعدت إلى وعي. رحتُ أردد: الحمد لله، الحمد لله... كان كابوساً مخيفاً وضح النهار وأخذت أمسح عيني المترعتين بالدمع. هدأ خوفي وأجلت نظري فيما حولي. كانت هناك شاة بجواري تبدو أنها ستلد قريباً، أخذت امرر كفي على ظهرها لمجرد الفضول وقلت:

– أترى كم من الإناث ولدتِ وكم من الذكور؟ كان الراعي ينظر إليّ مندهشاً، كنت أراقب فمه الذي لم يفتحه، فسمعتُ صوتاً بشرياً في رأسي يقول: "لماذا هذا الرجل يحدّث شاتي، أتراه مجنوناً؟ أتذكّر أنها ولدت ثلاثة شياه واثنين كِباش توأم" وقتذاك ابتهج قلبي طرباً حين أصغيت إلى تفكير الراعي! لم تسعنِ الأرض من الفرح قلت لنفسي" سبحان الله، لقد أصبح عقلي يتواصل مع العقول الأخرى مباشرة. لم تذهب تأملاتي هدراً في هذه الحياة". كان شوقي لا يوصف وفضولي لمعرفة ما يكتمه البشر عن الإفصاح به. استخدمت الفراسة ولغة الجسد أحياناً، حين يقف شخص أمامي وهو يحدثني بحذر، أو أشك من أحد لا يصدقني القول.

* ٦ *

ابتسمتُ للراعي، وهو ينظر نحوي حيناً وحيناً يرصد قطيعه، قلت:

– يا ناجي، لماذا تتعب هذه الشاة الولود، وقد ولدت لك ثلاثة شياه واثنين كباش، إحدى ولادتها توأم. وضع ناجي كفّه على جبينه وعيناه في حالة من الدهشة، سألني عن شياه أخرى إلى أن جاوبته عن كل ما كان يفكّر فيه حول الشياه التي سألني عنها. وقف أمامي مذهولاً، يسألني وهو يحاول جاهداً أن يواري رعبه:

– من أنت يا سيدي، إنسان أم جنّي خرج من "هيجة الجن"؟ وهو يشير بأصبعه المرتعشة نحو منحدر الجبل. ضحكت وقلت:

– لا تخف يا رجل، أنا إنسان مثلك، لكن الله أعطاني موهبة لمعرفة منطق الطير والحيوان، ولم أقل له أنني قرأت ما كان يفكر فيه، حتى لا يخاف مني أكثر. لكن الكذبة هذه كلفتني الكثير فيما بعد، وعاد يتحدث معي وهو مرتبكاً:

– هذا لا يُصدق، أنت معجزة ... لن يصدقني أحد إنني التقيت برجل مثلك، وألح أن أمكث عنده ضيفاً وأخذ يتودد وبالبسمة لا تفارق شفتيه:

– كما ترى يا سيدي، نحن في وقت الغروب، وعودتك إلى ديارك وحيداً في هذا الوادي فيه خطر عليك؛ فالكثير من السباع تمر فيه ليلاً وقد افترست بعض الأغنام يا سيدي. وهناك من وجد أقداماً وكفوفاً متبقية لضحايا من الناس. ابقَ ليلتك عندي وغداً أرحل إذا شئت يا سيدي. وافقت بعد شعوري بالتعب، فلم أعد معتاداً على المشي كل هذه المسافة في الجبال الوعرة وخاصة في الليل. وبينما نحن نمشي إلى داره وهو يسوق قطيعه، سألني عن اسمي، ثم راح يحدثني عن شياهه. ويشيد بي بقوله: "يا سيدي أنت مثل سليمان، حين كان يُحدث الطيور والحشرات... أنت فَلْتة هذا الزمان..."

* ٧ *

سار وهو يثرثر على سجيته يتحدث عن حياته وزوجته العاقر، وكيف تزوجها قبل ست سنوات من رجل فقير نزل القرية هو وزوجته، لا يعرفون من أين قدما. له ست بنات، كان اسم زوجته "قبُول" وبعد

الـزواج اسـتبدله بغصـون بِنـاءً علـى توجيـه مُـنّجم القريـة. ثـم حـدثني أنـه أعطاها مهراً عشرة أغنام حسب طلبها.

فجـأة تعثـرت شـاة حديثـة الـولادة ولـم تعـد تقـدر علـى المشـي، أنحنـى يحضـنها وحملهـا وهـو يهـش قطيعـه، قلـت الحمـد لله سـيكف عـن ثرثرتـه. ساد صمت بيننا ونحن على مقربة من داره، أبتسم وقال:

– ألا ترى يا سيدي أن غصُون ذكية؟

– كيف ذلك يا ناجي؟

– اقتنعـت بـالمهر، فالمـال كـان سـيتبدد، أمـا الأغنـام تضـاعف عنـدي. آه، كم هي ذكية يا سيدي.

وصـلنا منـزل الراعـي عنـد الغـروب، وقفـزت الشـاة مـن حضـنه تثـب بحركـات طفوليـة خلـف أمهـا. ذهـب الراعـي ينـادي زوجتـه بصـوت عـال، وطلـب منهـا أن تحضـر ديكـاً. وجـدتُ زوجتـه شـابة، جميلـة، سـمراء بلـون اليـاقوت الأحمـر متوسـطة القامـة، دعجـاء، رموشـها مثـل سـهام تختـرق القلـب، شـفتيها كالشـهد. حسـدتُ الراعـي علـى زوجتـه، وتسـاءلت كيـف رضـيت بـه زوجـاً؟ قلـت فـي نفسـي "سـبحان الله يعطـي حـور العـين فـي الدنيا لمن يشاء".

* ٨ *

حاولـت أن أغـض بصـري، حتـى لا تأسـرني فتنتهـا، لعنـتُ إبلـيس. اقتربـتْ تمشـي بغـنج نحـو الراعـي تحمـل ديكـاً كأنـه طـاؤوس صـغير،

وأخـذت تهمـس فـي أذن الراعـي بشـيء. ضـحك الراعـي حتـى بـدت ضروسه الخلفية ثم قال:

– لـيس لهـذا الأمـر طلبتـه يـا غصُـون. أخـذ الراعـي الـديك وقدّمـه إلـيّ وهو يقول لزوجته بغبطة كمن وجد كنزاً:

–إنـه يتحـدث مـع الطيـور والحيوانـات يـا غصـون. نظـرت غصـون إلـيّ بدهشة والراعي يقول لي:

–هيّـا، تحـدث مـع الـديك؛ لكـي تصـدق غصُـون أنـك معجـزة. أمسـكتُ الـديك بيـديّ والحيـرة تلفنـي وقـد تفاجـأت بهـذا الامتحـان المفـاجئ، رحـت أمسـد علـى ريشـه الجميـل وأنـا أخـتلس النظـر إلـى غصُـون، واسـتقرئ مـا تفكـر فيـه. ابتسـمتُ للـديك وهـو يحـاول الإفـلات مـن بـين يـديّ، سـألته بصوت مرتفع:

– يـا طاؤوسـي الصـغير، كـم لـك زوجـات؟ حينهـا راحـت غصـون تُفكـر: " هه، هه. مستحيل أن يعرف أنهن عشر دجاجات" وحين قُلت لهما:

إنـه يقـول: لديـه عشـر زوجـات فغـر فمهـا فـي غمـرة دهشـتها ووضـعت كفهـا علـى جبينهـا ثـم قالـت لـي اسـأله: مـاذا عمـل قبـل شـهرين؟ وهـي تحـدث نفسـها "هـل سـيعرف هـذا الغريـب أنـه قتـل ثعبانـاً؟" حـين قلـت لهـا مـا فكـرت فيـه أخيـراً؛ رأيـت عينيهـا النجلاوتـين تقـف دون حـراك برهـة، ثـم فكـرت "هـذا الغريـب معجـزة فعـلاً" ثـم راحـت ترحـب بـي بغبطـة! أخـذتني إلـى غرفـة الضـيوف. وجـدت المنـزل قـديماً يتكـون مـن ثلاثـة غـرف صـغيرة، إحـداهن زِرب للأغنـام. كنـت أسـتعيذ مـن فتنـة غصـون، ألعـن

إبليس الذي يُوقد فيّ جمرات الشهوة، وهي ترحب بي: أهلاً وسهلاً...! ذهبت غصُون تعد طعام العشاء، وأنا أشاهد البراغيث وهي تطمر فوق الفرش المنسوج من سَعف النخيل، أما تراب الجدار فكان يتساقط كلما مررت كفي عليه.

حضر الراعي مبتسماً يرحب بي بعد أن أدخل قطيعه إلى الزِّرب، يحمل لي في يده جِعنان[3] من الحليب وكوباً من الفخّار. صب اللبن في الكوب فأسرعت أغطّيه بكفي من جنون البراغيث وهي تثب في كل مكان. بعد قليل أحضرت غصُون الطعام: خبزاً، قهوة، خمس بيض مسلوقات وجلست أمامي. كنت أرشقها بنظراتي الخاطفة وأرى الشبق يطفو في عينيها. كانت تبلع ريقها عدة مرات، ترشق ديكي النائم بين فخذيّ خِلسة، تفكر بندم في عجز الراعي وتقارن هيئته بهيئتي. كنتُ اتناول طعاماً لذيذاً طبخته نار الشهوة، عكس الطعام المطهي بنار الغيرة على يدي نجوى.

* ٩ *

أقمت تلك الليلة في مكان لم أكن أتوقّعه. أفكّر في الطبيعة وقوانينها إذا وجدتْ مَن يلتحم ويغوص فيها تعطيه شفرتها للولوج فيها. وجدت أن في العقل قوى خارقة كامنة لم يستخدم الإنسان منها إلا الشيء القليل، وأن الطبيعة لها رموز لبوابات مغلقة يستطيع الروح

[3] إناء من القرْع الجاف

أن ينفذ منها، إذا امتلكت مفاتيحها. تساءلتُ "أُترى كيف ستكون رحلة الغوص في النفس البشرية؟" كان شوقي كبيراً ليس له حدود لأغوص في بحار النفس البشرية، ونادراً ما كنت أصل إلى هدفي، وما أقرأه كنت أشك بأنه خيال. كنت أقف أيضاً أمام الطير والحيوان، أراقب سلوكهم بعين ثاقبة فوجدته يشبه سلوكنا نحن البشر وطباعنا، كأننا جميعا توارثنا هذه الطباع من أصل واحد.

لم أستطع النوم من عبث البراغيث في جسمي ورحت أستعيد ذكرياتي مع نجوى عن منتدى السلم في العاصمة صنعاء الذي انتسبت إليه منذ سنتين، ومنذ تلك الفترة ازددتُ تأملا في الكون، كنت أفضّل الصمت والعزلة. لم أعد أضحك مع بناتي وزوجتي نجوى كسابق عهدي. حينها بدأت نجوى تشك أن سكرتيرة المنتدى أمة اللطيف تشغلني عنها؛ حيث كانت كثيراً ما تتصل إلى منزلي تسأل عنّي، وكان اتصالها يجعل نجوى تكابد الغيرة من صوتها العذب. وما زالت كلمات نجوى في مُخيلتي، حين قالت لي ذات مساء وأنا في غرفة نومي أحاول أن أنام. استلقت بجواري وراحت تقول:

–هذه الأيام أنت مشغول بحبيبتك أمة اللطيف والله، إنها عملت لك سحر، وراحت تشتمها...

* ١٠ *

في اليوم الثالث من وصولنا القرية، تلك النزهة التي ألحّت نجوى عليها، وعرفتُ سبب الحاحها فيما بعد، أخبرتني بأنها ذاهبة لزيارة

ضـريح ولـي الله سـعيد طـه المُلقّـب بالبـاهوت مـع ابنـة خالهـا فتحيـة، لكنهـا ذهبـت إلـى عبـده نـاجي الشُـعبي، وعـادت قبـل غـروب الشـمس كوردة ذابلة. رحت أضاحكها:

–الحمـد لله، نقـص وزنـك ثلاثـة كيلـو فـي يـوم واحـد. مـا رأيـك لـو تبقـين هنـا سـنة لتعـودين شـابة، تمشـين كمـا كنـت أيـام صـباك. ردت والتعـب بـاد عليهـا:

–أعـرف مـا تقصـد يـا عبـد الفتـاح، تريـد أن تـتخلص منـي لتتـزوج الصنعانية، حبيبة القلب.

– يا لهذه أمة اللطيف التي جننتكِ!

– والله ما جننتك وسحرتك إلا أنت، واليوم صدقَ ظني.

– ماذا تقصدين؟ كادت أن تخبرني بالقصة كاملة، لكنها صمتت.

حينما ذهبنا إلي الفراش مساءًا، اقتربت مني تلاطفني:

– يـا حبيبـي، هـذا بخـور مبـارك مـن ضـريح الـولي سـعيد طـه، سـأبخِّرك بـه ليحميـك مـن كـل شـر، لقـد عانيـت مشـقة كبيـرة لأحضـره لـك. وراحـت تـداعبني وتوعـدني بليلـة اسـتثنائية، نتـذكر فيهـا لقاءنـا الأول فـي نفـس المكـان الـذي صـار وشـماً فـي الـذاكرة. دخلـت نجـوى معـي إلـى الحمـام صـباحاً بعـد ليلـة حُـب، دلّكـت جسـدي ودفـأتني، ثـم بخّرتنـي وهـي تمتمـت بكلام غير مفهوم لي وظلت ثلاثة أيام تبخّرني.

رأيـت ذات صـباح فـي قـاع كـوب الشـاي حُثالـة أوراق مُترسـبة، أدركـتُ بـأن نجـوى ضـحية الـدجل. حـين قلـت لهـا أننـي عرفـت كـل شـيء، قالـت

بحنق بأنها لن تدع امرأة تسحرني وتأخذني من اسرتي. رأتني نجوى بعد الرُّقية أقف أمام بقرة العمة تفاحة، أمسح على ظهرها، أتحدث أمامها، وشاهدني بعض أهل القرية أيضاً. وهم يشيرون بجنوني، وأنني سألحق بقيس الذي سحرته صفية. الغريب أن البقرة لم تدر الحليب تلك الليلة، وراحت تتهمني العمة أنني سحرتُ بقرتها، وأخذت مريم تلعن السيد الشعبي الذي زادتني رُقيتهُ جنوناً.

حين غلبني النوم في بيت الراعي الذي وجدته طول الغرفة أصغر من طولي، لم أعد أحس بالبراغيث. قررت النهوض عند بزوغ الفجر؛ لأعود إلى القرية. رقدتُ حتى منتصف الليل إلى أن أحسست بجسد دافئ يلتصق بي فنهضتُ والفزع ينتابني فيما الجسد الأنثوي يُقبّلني، يهمس بجوار أذني، وسرت قشعريرة فيّ من رأسي حتى أخمص قدمي:

– لا تخف، زوجي لن يصحو إلا عند الفجر، خذ راحتك كما تشاء.

همست لها في خوف:

– لا، أنا لا أقرب الفاحشة. حاولت إغرائي فرفضتُ وانسلّت هي من جواري، قلت لنفسي "الحمد لله اقتنعت". لم أستطع النوم وأخذت أراقب انبلاج أول خيط للفجر؛ لأعود إلى القرية. فجأة فُتح باب الغرفة وكان الراعي يحمل فأساً، وغصون تواري خلفها شيئاً وبيدها الأخرى

فانوساً[4]، قلتُ لنفسي "إن كيدهن عظيم". تقدّم الراعي نحوي والغضب يتملّكه:

– لقد غيّرت رأي في رحيلك، لن ترحل يا غريب قبل أن تخرج لنا كنزاً مثل كنز قُصيلة، فأنت تعرف ما لا يعرفه البشر، ثم هجما عليّ وكبّلاني بالحبل سريعاً ما لم أكن أتوقعه. حاولت أن أخبرهما بأني لا أعرف شيئاً عن أي كنز ولكن لا فائدة. قال الراعي وهو يشير إلى زِرب أغنامه:

– سَلِ الحيوان، سل الطير، هي تعرف أشياءً كثيرة، لكنها لا تستطيع أن تنطق، ومَن يتحدث مع الطيور يتحدث مع الجن. اسألهم، فقد سمعنا كثيراً أن بعض الناس وجدوا كنوزاً بجوار الطريق المؤدي إلى قلعة المنصوري والجن هي من أوحت لهم بذلك.

في الصباح الباكر قبل أن يغادر الراعي الدار أمر زوجته بحراستي وتغذيتي إلى أن يعود من المرعى. قال لي وهو يهددني وأنا متعب:

–إذا تريد العودة سريعاً إلى أهلك ساعدنا وإلا ستُحبس أو تموت هنا! قدمت غصُون طعام الإفطار: خمس بيضات مسلوقة، خبز، حليب. رفضته في البداية وحين شعرت بالجوع، طلبتُ منها أن تفُك وثاق يداي لأتناول الطعام. تظاهرت أنها لا تسمعني لكنها أتت تطعمني بيدها كطفل، تداعبني بغنج ودلال وهي تضحك قائلة:

---

[4] قنديل

– هـذه البيضـة للملـيح وهـذه للشـريف، وهـذه للمُخلـص لزوجتـه... وعندما أكملت إفطاري مسحت حول فمي بيدها وهي تبتسم:

– لقد غذّيتك والآن جاء دورك. فرحتُ بمقالتها، ابتسمت وقلت لها:

– فُكّـي وثـاقي، وسـأطعمك بيـدي كمـا اطعمتنـي. أشـارت بـالنظر إلـى بين فخذي:

– أريـد غـداءً مـن هـذا، ثـم اقتربـت تمـرر أناملهـا عليـه وألقـت بـي علـى ظهـري وهـي تضـحك بمجـون. حاولـتُ ألا أطيعهـا، فخرجـتْ والمكـر بعينيها، قُلت حمداً للرب أنها اقتنعت.

فكّرتُ فـي رفضـي لإغرائهـا، هـل حُـب لنجـوى وقـف حـائلا بينـي وبـين فتنتهـا؟، أم عنـدما يكـون الشـيء فـي متنـاول أيـدينا نزهـد فيـه، علـى الـرغم مـن اعجـابي بهـا، أم أنـه الخـوف مـن الله. كـل تلـك التسـاؤلات خطـرت لي. وأنا في خضم حيرتي عادت والسكين في يدها. قالت بمكر:

–إن لـم تتركنـي أعمـل مـا أريـده منـك سـأحرمك منـه الآن. خفـت مـن جنونهـا وشـبقها، فلـن أسـتطيع الـدفاع عـن نفسـي وأنـا مكـبلاً بإحكـام حتـى قدمي.

بـدأت كقطـة تعبـث بفـأر والنشـوة فـي عينهـا، ثـم صـارت ديكـاً وأخـذت تُحلّـق فـي سـماوات اللـذة. دخـل الـديك يزقـو... ينظـر بدهشـة يسـألني بدهشـة "كيـف أصـبحتْ الدجاجـة ديكـاً...؟". قامـت وهـي تقـول والبسـمة على شفتيها:

– ستبقى يا غريب تحت رغبتي، وإلا سيقتلك الراعي.

– لو تفكّين وثاقي لكان أفضل لك. ردت بغنج:

– لكي تهرب مني يا قُرة عيني؟

ساعدتني على الذهاب إلى الحمّام وأنا مُكتّف اليدين والرجلين، ثم عدت إلى مكاني وأنا أثب كالكنغر. كنت أستمع إلى صوت شحذ السكين وفأفأة دجاجة قبل ذبحها. بدأت تعد طعام الغداء وهي تُغني من أغانينا الريفية، بصوتها الرخيم المملوء بالحنان والدفء:

ألا، ليه، ليه، ليه.

أنت الذي علّمتني الهيامةْ .. واسقيتني من كُل بحر قامةْ...

قدمت الطعام وهي تمشي بغنج ودلال وراحت تطعمني بيدها وأنا أفكر ماذا يجري الآن لعائلتي. تخِيلت نجوى تندب حضها، تلعن فِكرة السفر إلى القرية.

* ١١ *

لا يمكنني أن أنسى منظر الراعي عصر ذلك اليوم، وهو عائداً من المرعى يسوق قطعانه بسرعة والسماء تمطر بغزارة، حين سأل زوجته بلهفة قبل أن ينزع ثيابه المبلولة:

– هل تحدث الغريب بشيء يا غصون؟ ردّت بدهاء وهي تشير برأسها بالنفي ثم قالت:

– يا ناجي، لن يساعدنا الغريب إلا إذا حبسناه لفترة طويلة، إنه رجل عنيد... وهذه فرصتنا الوحيدة، أرسلها الله لينقذنا من الفقر ونذهب للعيش في المدينة. لن نتركه حتى يساعدنا.

خِفت مما قالته غصُون خاصة وأنني أعرف ما وراء حديثها، وصار مصيري في قبضتها. جاء الراعي لمساعدتي للذهاب إلى الحمام، وهو يقول بتودد لا يخلو من الغضب:

– ساعدنا يا غريب لتُخلّص نفسك، فمنذ زمن وأنا أفتش عن الكنوز حول هذه الطريق. تعبت كثيراً من مهنة الرعي.

سهرتُ تلك الليلة وأنا أستمع إلى هدير سيل جبال (شوكة) في الوادي، وأفكّر كيف أخلّص نفسي من رغبة شهوانية جامحة وجدت ضالتها. كان عليّ أن أحذر من إظهار موهبتي لأناس لا أعرفهم، لكنه الزهو يدفعنا إلى ذلك.

* ١٢ *

نهضتُ باكراً أحاول فكّ وثاقي من الأسر لكن دون جدوى، كان وثاقاً شديداً وكنت أجد صعوبة في نزع سروالي في الحمام. هتفتُ إلى الراعي ليصحبني إلى الحمام. قال ساخراً وهو يأخذني إليه:

– ستبقى في الأسر حتى تخبرنا عن المطلوب، سأحرمك من الأكل والشراب يا غريب إن لم تخبرنا عما نريده منك. صمت قليلا ثم قال: يا أخي سلْ الحيوانات عن أماكن الكنوز، أنت تستطيع أن تتحدث

معها. هل أخذك إلى شياهي وأغنامي؛ فأنت تعرف منطقها. ها، ماذا قلت؟

عِدتُ أقفز كالكنغر من الحمام، وحبال شهوة غصُون وغباء الراعي تلتف حولي. أقسمتُ له عدة مرات بأنني لا أعرف عن الكنوز، إلا كما سمع هو من إخراج بعضها من قبل أناس مجهولين في طريق القوافل المؤدي إلى القلعة. سمعت الراعي يقول لزوجته بغضب قبل ذهابه إلى المرعى:

-لا تُطعميه حتى يُخبرنا هذا الغريب عمّا طلبته منه.

بعد ذهاب الراعي بساعة شممتُ رائحة السمن البلدي والخبز ففتحت شهيتي للطعام. قدمته غصون لي إفطاراً شهياً: فَتّة دُخن بالحليب والسمن البلدي، بيض مسلوق، حليب. ساعدتني على الجلوس، وجلست أمامي تطعمني بيدها. رجوتها أن تفك وثاقي، لكن لا حياة لمن تنادي وذهبت تعد حجر الرحى لطحن الحب. ما أعذب صوتها وهو يطغى على جعجعة الرحَى، وهي تلقم الحجر بالحبوب. تُدندن:

ألا، ليه، ليه، ليه، ألا

ليت الحبيب يبقى سنين جواري

يمسح على صدري يُطفئ لي ناري

شاعطّرهْ بالحُبِّ والمباخرْ

واذوبَ لهْ كاذي وعطرَ فاخرْ ...

وأنا أتساءل "كيف أتخلّص من شهوة وجدتْ فريستها، وأنشبت فيها مخالبها" إذ بها تدخل عليّ ترفل بثوب شفّاف يُبدي كل مفاتنها وشممتُ رائحة البخور؛ فسرت الرغبة عبر دمي. قالت ضاحكة:

– استلقي على ظهرك، لا داعي لأن أحضر سكيناً مرة أخرى، قلت لها:

– فُكِي وثاقي فالمهرة تُعتلى ولا تعلو، ستجدينه أفضلْ إن كنتِ أنتِ الأسفلْ. قامت والعرق يقطر من جبينها.

* ١٣ *

عاد الراعي عصراً والضجر يعلو على وجهه. سأل زوجته: هل أخبرك الغريب بشيء؟

ردت غصُون بأنني لم أخبرها بشيء وأنها لم تطعمني أو تسقيني، ولا بد من حبسي حتى أخبرهم عن المطلوب، وأردفت: لكن علينا أن نطعمه حتى لا يموت جوعاً. وراحت تتأسف لزوجها بأن العُزيق (الثعلب) خطف عليهم دجاجتين، حين كانت مشغولة في حراستي. أقترب الراعي مني غاضباً وقال:

– لماذا لا تدع الأغنام والشياه تساعدك؛ فهي تعرف الطرق والشعاب أفضل منا، وراح يحدث نفسه "أظن هذا الغريب يعرف مكان كنز

مـدفون، لكنـه يريـده لنفسـه سـيعود لـه لـيلا ليخرجـه، مثـل الـذين جـاءوا ليلا يخرجون كنز قُصيلة واظنه منهم. لابد أن أجبره حتى يخبرني".

فـي اليـوم الثالـث بعـد أن غـادر الراعـي نحـو المرعـى، اقتربـت غصـون منـي ومـررت أناملهـا علـى صـدري حتـى فخـذي وراحـت تخبرنـي بمـا أدهشـني وهـو تفكيرهـا بـالهروب معـي وأنهـا سـتكون عشـيقتي، وأن زوجهـا هـو العقـيم ويتهمهـا هـي بـالعقم، ولـم يشـبع رغبتهـا فـي الفـراش. أخبرتنـي أن والـديها سـكنا هـذه القريـة بـين القبائـل، وعمـل أبوهـا راعيـاً ومزارعـاً، بعـد أن عُـزلا عـن عشـيرة الأحجـور[5]، ثـم غـادرتني وعـادت قبـل الظهـر بعـد أن أعـدت إحـدى دجاجاتهـا للغـداء. ألقـت بنفسـها علـى صدري. قلت لها:

– لست قادراً على ذلك.

– لـيس عليـك أن تقـوم بشـيء، إلا أن تسـتلقي علـى ظهـرك. وراحـت تحلّـق فـي عـالم المتعـة إلـى أن تهـاوت علـى صـدري وهـي تتعـرق. حينهـا خطرت لي فكرة وعرقها الأنثوي قد تداخل بجسدي وقميصي. قلت:

– رائحتـك تفـوح فـي قميصـي، سـيعرف زوجـك مـا يجـري بيننـا، وكمـا ترينني لم اغتسل منذ ثلاثة أيام. دعيني أذهب إلى الحمام لأغتسل.

وأخبرتهـا بـأني عشـقتها، وأقسـمت لهـا إننـي سـآخذها معـي لتكـون عشـيقتي فـي المدينـة. أظهـرت لهـا عشـقاً لا حـدود لـه، ومـا أسـهل خـداع المـرأة بسـحر الحـب. أخـذت تفـكّ قيـدي والبهجـة تـرقص فـي عينيهـا.

---

[5] أناس منبوذون

وقتذاك تنفست الصعداء وحمدتُ الرب على تحرري من أسر شهوتها. اغتسلتُ وهي تراقبني وسألتني عن البُقعة السوداء المثلثة الشكل في الجهة اليسرى من ظهري، قلت لها: إنها "شامة" تميّزت بها عائلتي. كانت تراقبني والشهوة في عينيها وأنا أغتسل، فسارت تخلع سروالها وهي تضحك بغنج، وهمّت بالدخول لتغتسل معي. قلت لها سيكون أفضل على الفراش.

ذهبت لتعد فراش غرفة نومها، وهي تدندن أغنية غرامية. لبستُ ثيابي سريعاً ثم خرجتُ فجأة من الحمام، كبّلتُ يديها ورجليها العاريتين بنفس الحبل إلا من قميصها، كانت تضحك كالمجنونة:

– سألحق بك يا غريب، لن تفلت مني. لابد من بذرة منك، لقد استعجلت كنت سأطلق سراحك. انطلقت أعدو نحو قريتي، أتلفت خلفي وأتخيل أن الراعي يجري خلفي بفأسه، ما منحني عزماً وقوة في المشي سريعا، حتى اجتزت منطقة الخطر.

وأنا في طريقي إلى القرية، كنتُ ألعن مَن تسبب لي بكل هذا العناء... كان الفقيه هو أكثرهم من تسبب بمعاناتي. فقد حضر مع بعض أهالي القرية ومازال كلامه في مُخيلتي، حين قال لي بود:

– لقد جئنا لمساعدتكم يا عبد الفتاح. رحّبت بهم وقلت:

– فيما تساعدوني يا فقيه. دَعكَ مسبحته وابتسم:

– مَن يتحدث مع الحيوان! إما أن يكون ولياً مثل شيخنا الولي عبد الله، الذي نطّق البقرة أو أن يكون كذاباً، أو مسكوناً بالجن. وأنت

لست وليّاً ولم نعهدك كاذباً، لهذا نراك مسكوناً بالجن وهي التي توسوس لك. سوف يرهقونك ولن يخرج الجن من جسدك إلا بقراءة القرآن عليك. وراح الأهالي على سجيتهم يشيدون بالفقيه:

–نعم، يا عبد الفتاح، الفقيه أخرج من رؤوس المجانين الكثير من الجَن. دعه يقرأ عليك القرآن. وتقدم محمد راجح عليه سمات البراءة وقال:

– دخل الجني جسدي يوماً وأنا اقترب من الضاحة (منحدر خطر) فضرب الفقيه الجني بعصى الخيزران، وأخرجه من جسدي وشفيت. وحين مرضتُ بعد أن رأيت سيوف الجن تلمع في الضاحة بعد المطر، عالجني بالقرآن. وراح البناء نعمان يقول:

–كانت بطني تؤلمني ذات يوم، فتفل الفقيه فوق بطني ومسح عليها وقرأ القرآن؛ فشفيت. لمّا رأيت الناس على استعداد لإجباري لما يقوله الفقيه. استلقيت على ظهري، ووضع الفقيه يده على رأسي وأخذ يقرأ بعض آيات القرآن... كان يسألني من حين لأخر:

– هل أحسست بشيء؟

– مثل ماذا؟

– دوخة أو طنين في الأذن.

– لم أحس بشيء.

عاد يقرأ. شاهدني لم أتأثر بسماعي للقرآن، ولم أدخل في غيبوبة أو أرتعش كما يحصل لبعض الناس حين يقرأ أحدٌ القرآن عليهم، فقال بأسف:

– لن يخرجوا الجن منك؛ إلا بميسم على الرأس فهم أقويا جاءوا من الصين. قلت له:

– كيف عرفتهم، هل هم فُطس؟

فضحك الجميع، وأسرّ الفقيه سُخريتي في نفسه.

* ١٤ *

وصلت إلى دارنا بعد غروب الشمس، وأنا منهك القوى. تفاجأتُ لوجود أناس حول داري وأصوات تتعالى وتنخفض داخل الدار، وثمة رجلان عند باب الدار لم يعرفاني، كانا يتذمران من قِلّة أوراق القات الموزّع في المولد، قال أحدهم لي:

–لقد تأخرت، لم يعد هناك قات ثم راح يقول لصاحبه: "هذا المجنون لن يعود، قد يكون الطاهش(الأسد) أكله"، قال الأخر:

"هذا جزاء من يهزأ بأولياء الله."

"لا، يا رجل، سيعود إن شاء الله، ليبطل خُطة مُقبل الفقيه."

"هه .. وما هي خُطته؟! "

"الفقيه وصالح شقيق عبد الفتاح، يتنافسان على زوجته. كلٌّ منهم يريد أن يسد الطريق على الآخر ويسبقه في حالة الباهوت لم يرده

حيـاً. وقتـذاك دوت تلـك الكلمـات كالصـاعقة علـى قلبـي، والأنكـى مـن ذلك ما سمعته عن أخي، فاعتراني حزن عميق.

لمّـا عـرف الحاضـرون بوجـودي خرجـوا يسـتقبلونني، وفـي عيـونهم الدهشة والفرح معاً. كان البعض يردد بصوت عالٍ:

– الله أكبـر، لقـد أعـاده البـاهوت سـليماً!... عفـا البـاهوت عنـه. الله وأكبر.

– لقد قبلَ نذور مولدنا.

فرحـت الأسـرة بعـودتي سـليماً بعـد أن فقـدوا الأمـل. لكـن الفقيـه وقـف يبتسم بخبث وقال لهم:

– يـا أهـل القريـة، أرئيـتم كيـف وسـوس الجـن لعبـد الفتـاح، بحفـر قبـر الـولي البـاهوت. مـازال الجـن فـي رأسـه، ولـن يخرجـوا منـه إلا بميسـم فـي رأسـه. وكسـب الفقيـه الجولـة هـذه المـرة وكـوى رأسـي بالنـار، تحـت إلحـاح الحاضرين جميعاً؛ حتى شممت رائحة شواء جلدي تزكم أنفي.

* ١٥ *

نهضـت بـاكراً كعـادتي ونجـوى تعـد طعـام الإفطـار. جلسـتُ علـى سـطح الـدار أشـاهد ضـريح الـولي البـاهوت. دُهشـت وأنـا أرى مـن هـذا البُعد ثمـة نسـاء حـول الضـريح، كـأنهن فـي طـواف. لـم أصـدق عينـي مـا أراه، لكننـي وجـدت نفسـي كـأنني أنظـر بالمنظـار. وأخيـراً أرجعـت هـذا إلى أنني في حالة هلوسة بصرية، ولم أعد أفكر في هذا الأمر.

أقبلت نجوى تتهادى وفي صحنها خبز جاف مع بيضتين مسلوقتين وكوب شاي. جلست أمامي وهي تحدث نفسها "هل أخبره أن مُقْبَل الفقيه كان يتردد على البيت صبحاً ومساءً مرتدياً أزهى ثيابه المُعطرة، يعرض خدماته وكان قصده كذا وكذا... أظنه لم ينس رفضي الزواج به قديماً." دون إرادتي وأنا أكتم غيظي، قلت:

–ماذا كان يريد هذا الكلب؟ رأسي مازال مجروحاً من مِكواه اللعين.

خرجتْ نجوى من دوامة تفكيرها، وهي تقول:

–من هو الكلب؟! بلعتُ غضبي وقلت:

– كُنت أفكر في شيء حدث لي في غيبتي. عادت تسأل نفسها "أتُرى مع مَن كنتَ يا عبد الفتاح طوال الثلاث الأيام؟ رائحة قميصك غريبة عليّ" وفعلاً مازالت رائحة غصُون وبخورها تغوص في ثيابي، قلت لها:

– أظنك تشكّين بي يا حبيبتي.

رأيت الدهشة في عينيها ممزوجة بالخوف وهي تقول:

– أنت حقّا مسكون بالجن، يخبرونك عمّا يدور في عقول الناس ثم حدّثت نفسها "لقد فشلتُ في علاجك. كنتُ غلطانة حين سمعتُ نصيحة يا مريم " ثم ذهبت والدمع في عينيها.

جلست مع بناتي في سطح الدار ننظر إلى الطبيعة الخلابة، بعد يوم ماطر وأخذت ابنتي نجاة تحدثني عما حصل أثناء غيابي. قالت:

– حين وصل رفيقاك إلى القرية اللذان اسطحبتهما معك إلى ضريح الولي، تحدثا إلى الأهالي عمّا كنت تضمره للضريح. قال: "إن الولي غضب عليك بما فعلته بقبره وزادك جنوناً بعد أن نبشت القبر، ربما تصيب اللعنة القرية كلها" بكينا جميعا وتأثر أهل القرية لبكائنا ماعدا الفقيه قال وهو يشير بسبابته نحو أهل القرية بسخرية "ألم أقل لكم إن علاج هذا المجنون عندي؟ ميسم مُخالف(متقاطع) في رأسه. كيف ينبش قبر ولي الله الباهوت! إذا عاد حيّاً لن يكون سليماً. أستغفر الله ..." كان لابد أن ترسل أمي أحداً للبحث عنك، فأرسلت عبد الرحيم من أبناء عمومتك، وعاد دون فائدة ثم اجتمع أهل القرية ليالاً، يتدارسون أمر اختفائك المفاجئ. كان الفقيه يقول: "سامحه يا باهوت... إنه لا يعرف مقامك. استغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم. كيف ينبش قبر ولي الله! هذا جُرم ما بعده جرم. أستغفر الله ... أستغر الله."

جهزت القرية سبعة رجال للبحث عنك في الطرقات وفيما جاورها من قُرى، المؤدية إلى ضريح الولي الباهوت. صافحهم الفقيه وهو يتباكى، وأخافنا وهو يقول لهم "سلو كل عابر سبيل، كل قرية، فتشوا جيدا بجوار الطرقات. قد تكون سباع الولي أكلته، لا تعودوا حتى تجدوا أثره، وإذا وجدتم أقدامه أو أكفه مما يزهد بها السباع احضروها، ليدفن في مقبرة القرية"

عاد رجال قريتنا الذين ذهبوا في مهمة البحث عنك قبل غروب الشمس، دون العثور عليك مما زاد حزن أمي عليك، تندب فكرة

السفر إلى القرية، تلعن صديقتها مريم والدجال الشُعبي، الذي لم يفدها في شيء.

* ١٦ *

ذات مساء وأنا في سطح داري أنظر إلى السماء الصافية، تذكرتُ صديقي الأقرب إلى قلبي، سَعد الفَرَح الذي كنتُ أزوره خلسة في صنعاء، حي الصافية؛ حتى لا يشاهدني الحرّيب (المُخبرين)، فالشُبهة تُهمة كبيرة. لديه ستة من الأبناء: ثلاثة أولاد وثلاث بنات. حالته المادية متواضعة. يساري، وقد نال الويل تبعاً لذلك. كان يُحدثني عن الماركسية وكيف الأديان فرّقت بين البشر، وأدت إلى حروب بينهم. قلت له: ليست الأديان هي من فرقت بينهم، لكنها الزعامات الدينية، هي التي فرّقت حتى بين أبناء الدين الواحد، فسّروا وأخذو من الأديان كما تهوى مصالحهم الدنيوية، أمّا الأديان فهي رسالة الحُب والسلام والإخاء بين الناس. حذّرته وقلت له أن يتخلّى عن أفكاره اليسارية؛ فلديه أبناء والأفضل أن يفكر فيهم وفي تربيتهم الجيدة. أحزنني حين أشاح بصره عني وقال:

– أراك يا عبد الفتاح، تحدّث نفسك أحياناً، بالأمس رأيتك أمام إحدى الأشجار تحدّث نفسك. كدت أن أخبره أنني كنت أحدّث عصفوراً، لكنني لم أفعل، ثم قال بلطف وهو ينظر نحو الأرض:

– يا صديقي، لماذا لا تعرض نفسك على طبيب نفساني؟ أعرف طبيباً تخرّج حديثاً من الاتحاد السوفيتي. أحسست بحزن عميق وهو يحدثني وحين لمح تأثري، ضحك وقال:

–عجب يا صديقي! يحاربون الشيوعيين في بلادنا، وهم يرسلون أولادنا للدراسة في البلدان الشيوعية، أليس في هذا الأمر ما يضحك؟ قلت له:

– لكنهم يرسلون الجواسيس خلفهم يتتبعون خطواتهم وعند العودة يغسلون ما علق في أذهانهم من تلك الأفكار، بالتنكيل بهم.

قبل أن أغادر منزله فاجأني بإزاحة فراش أرضية الغرفة، وأزاح الستار عن صندوق. فتحه كأنه يفتح كنزاً مخفياً فيه كُتب عديدة منها: رأس المال لكارل ماركس، ما العمل، الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية، اطروحات أبريل، أمراض الطفولة لدى اليسار المتشدد، المادية والمذهب النقدي التجريبي، خطوة للأمام وخطوتين للخلف، وكتب أخرى لفلاديمير أليتش أوليانوف المعروف بلينين، كتاب إخوان الصفاء وخلان الوفاء. يتداولها هو وزملائه، ولكنني أخترت الكتاب الأخير.

ودعته واتجهت إلى منزلي، وأنا أفكر بما قاله حول ضرورة زيارتي إلى الطبيب النفساني. خرجت وأنا أتلفت يمنة، يسرة، لم ارَ أحداً، توجّهت نحو منزلي، وأنا التفت إلى الخلف بين الحين والحين علّ أحد يتبعني.

أقبلت نجوى بوجبة العشاء ومازلتُ أعيش مع ذكريات سَعد الفَرَح. تناولنا عشاءنا نحن والبنات، ثم نزلن من السطح وذهبن إلى الفراش، وبقت نجوى بجانبي ورحنا نستعيد ذكرياتنا القديمة في القرية. ساد صمت بيننا ثم بدأت نجوى تحدث نفسها، فيما قالت لها صديقتها مريم قبل السفر "نصيحتك يا مريم لم تفد بشيء. كنت تؤكدين لي بأن السيد عبده ناجي الشعبي، سوف يخلّص زوجي من سحرها ويعمل لها (مَكرِهة)؛ حتى يكرهها ويراها قِردة في عينيه وإن لم أسرع في السفر إلى القرية، يمكن أن يصاب عبد الفتاح بالجنون مثل قيس الذي سحرته صفية".

حينها عرفتُ سبب إلحاح نجوى بالسفر إلى القرية، والتي شكّلت تلك الشائعات صدمة لي بأنني في طريقي إلى الجنون. بدأتُ أرى الإشفاق في نظرات الأهل والأصحاب، وانتشر الخبر بأنني مسحور مثل قيس من قِبل امرأة صنعانية. كان كلام مريم مؤثراً على نجوى؛ ففي ذات يوم عدت إلى منزلي ووجدت دُخاناً كاد يخنقني، ونجوى تطوف بالمبخرة حُجرات المنزل. تحدث نفسها يعلو وجهها سيماء الغضب. سألتها:

– لماذا كل هذا الدخان يا نجوى؟!

– نطرد الجن يا عبد الفتاح، الذين سكنوا المنزل.

– ما هذا التخريف!

– لا، ليس تخريفاً. أنا الآن أحيطُ هذا المنزل بالأولياء والصالحين. وأطرد الجن التي تأتي في صورة طيور إلى سطح المنزل...

* ١٧ *

خرجتُ يوماً من داري بعد الظهر، مصطحباً معي كتاب إخوان الصفاء وخلّان الوفاء، الذي أهداني إياه صديقي سعد الفَرح. ورحتُ أتأمل في الكون تحت شجرة (الخِصّال) وهي شجرة كبيرة صمغية. كنا نجلس تحتها حين كنا صغاراً نستمع إلى حكايات جدتنا "حمامة عبد الله".

كنا نلتقي هناك عصراً بعد العودة من الدراسة في مِعلامة (الكُتّاب) الفقيه سعيد علي، قبل أن أرحل إلى عدن مع أبي. أعادتني هذه الشجرة إلى ذكريات الصبا، تذكرت تلك الرحلة الشاقة وأنا أدرج حافي القدمين، البس قميصاً مقلّماً، أعتمر كوفية على رأسي. ركبنا أحد الجِمال في القافلة وهي متجهة إلى سوق السبت. كان أحد الجمّالين يدندن:

عَدنْ لكم وانا ليّ البوادي..

والله العظيمْ ما افرُقْ أنا بلادي

حين وصلنا سوق السبت ركبنا سيارة لاندروفر، وقتذاك لم أستطع أن أصف الفرحة وأنا أستقل تلك السيارة العجيبة، خلتها تطير كأنها بساط الريح، التي كانت جدتنا حمامة تحكي لنا عنه في حكاياتها.

جلست أقرأ في كتاب إخوان الصفاء تحت ظل الشجرة العتيقة. مرت أمامي زعفران زوجة مُقبل الفقيه تقود بقرتها أمامها. ورحت أفكر في الألفة والحنان بين أنثى الإنسان وأنثى الحيوان، وكيف تدرّج الخلق

فـي الارتقـاء، تجـد النبـات رأسـه نحـو الأسـفل مغروسـاً فـي التربـة والأغصـان هـي الأطـراف، والحيـوان رأسـه نحـو الأرض إلا القـرد فهـو بـين المنـزلتين، يليـه الإنسـان منتصـب القامـة. هـذه الحيـاة حلقـات تـربط بعضـها بعضـا، سُـلم بدايتـه الجمـاد ونهايتـه الإنسـان. وهنـاك مـا يـدهش المـرء هـو وجـود مخلوقـات بحريـة حيّـة، جمعـت بـين الجمـاد والنبـات والحيـوان فـي كـائن واحـد، وهـو صَـدف بحريـة كأصـداف اللؤلـؤ تنمـو بجـذور قويـة فـي قـاع البحـر وتكثـر فـي الشـواطئ. جـذوره جـذور شـجرو جلده حجر، وجوفه من لحم. لا يُنتزع من تربته البحرية إلا بالقوة. كنا نقتلع جذوره من تربته تحت الماء بصعوبة، وبعد طبخه نأكل لحمه الشهي، أم صدفته الصخري فكنا نستعمله منفضة للسجائر.

أخذتني أفكاري إلى أعماق الكون، وما أن جاء عبد ثابت ومحمد دحّان حتى أعاداني إلى قاع الأرض. رحبت بهم فجلسا بجواري. سألني محمد دحان:

– بماذا تفكر يا عبد الفتاح؟

– أفكر في الخلق، وأخبرتهم بما كنت أفكر فيه، لكنهما لم يفهما. حدّثَ محمد دحّان نفسه "كلام مجانين".

لم أهتم بما يفكران به. انصرفا عني وقد قرأت فيهم أفكارهم السلبية. عدت إلى منزلي ظهراً؛ لأتناول وجبة غدائي. أثناء تناول الغداء كنت ابتسم حين أذكر غصون ودهائها وغباء الراعي. لاحظتُ نجوى والحزن بِاد عليها، وهي تعتقد أن حالتي تزداد سوءً.

* ١٨ *

– يا عبد الفتاح، نحن نعرف أنك لم تشف بعد، وأن الجن لم يخرجوا منك، لكن ما قاله عبده ثابت ومحمد دحّان، شيء خطير جداً، لا يمكن السكوت عنه. هذا كُفر، ولو لا معرفتنا بحالتك هذه لعاقبناك على كلامك هذا. لا تكرر هذا الحديث مرة أخرى حتى لا تفسد عقول أهل القرية. هذا ما قاله مُقبل فقيه القرية، وهو يحدثني عن حدِّ الرِّدة في الاسلام وتأسف من قولي: "إن آدم ليس أول إنسان في الأرض وحواء ليست من ضلعه" ثم أخذ يتلو قوله تعالى﴿ومِنْ ءآيَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُم أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ الروم ٢١. رحتُ أدافع عن رأي، بعد أن قرأت ما يفكر فيه الفقيه من كره وكيد لي. قلت له: غير ممكن أن نبقى على تفسير القدامى؛ فالفكر يتجدد مع تقدم الزمن. سخر مني غاضباً وهو يفكر بصفعي وراح يقول لنفسه "هه، ما عاد باقي إلا المجانين يفسرون لنا القرآن...". ابتسمت من تفكيره. قلت له:

–هذه الآية لم تذكر أن حواء خُلقت من ضلع آدم، لكن كما يرى علماء الجنس البشري في بدء الخلق كان المخلوق الحي الأول ذكراً وأنثى، ثم انفصلا عن بعضهما وأخذت مراحل التطور هذه ملايين السنين وتزاوجا معاً وتكاثر الخلق، وتعددت أشكال المخلوقات الحية، إلى أن ظهر الإنسان على هذا الشكل الأروع والأكمل، والذي أظنه لن يكون بهذا الشكل بعد ملايين السنين، كما جاء في القرآن ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ أَطْوَاراً﴾نوح ١٤.أما آدم فليس أول إنسان خلق على الأرض،

ألـم يُـذكر فـي القـرآن أنَّ *اللَّهَ اصْـطَفَى ءَادَمَ وَنُوحـا وَءَالَ إِبْـرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْـرَانَ عَلَـى العَـالَمِينِ*﴾ آل عمـران ٣٣ والاصـطفاء والتفضـيل، لا يكـون إلا مـن العـالمين فـي نفس الزمـان، إي مـن بـين شـعوبهم. ألا تـدل هـذه الآيــة علــى أن آدم كــان موجــوداً، حــين فضّــله الله علــى غيــره مــن العالمين؟

أنـدهش الحاضـرون ممـا قلتـه، بينمـا كـان الفقيـه يهـز عصـاه ويحـدّث نفسـه والغضـب يتملكـه "لـن يخـرج الجنـي الـذي يوسـوس لـه، إلا بهـذا العصـى علـى أم رأسـه" وضـعتُ يـدي الشـمال علـى رأسـي بخفـة، وأبتعـدتُ عـن مكـاني سـريعاً، بعـد أن أدركـت نوايـا الفقيـه وشـكرت الله علـى هـذه الموهبـة؛ حينهـا قـال لنفسـه بدهشـة "الله وأكبـر، أخبـره الجنـي بمـا فـي نفسـي..." وراح يمـد عصـاه نحـوي فجـأة، ثـم وكزنـي فـي جنبـي الأيمن، وقال بِحدّة:

– مـن هـذا الضـلع الأعـوج، خلـق الله أمّنـا حـواء يـا كـافر... تألمـت مـن وكزته، قُلت له غاضباً:

– كوَيـت رأسـي بالنـار؛ لتخـرج الجنـي والآن تُكفّرنـي، فحـدّث نفسـه "تستحق نار جهنم يا شيوعي" ثم قال لي:

– نعـم، لكـن هنـاك جـن آخـرون مـا زالـوا فـي رأسـك، يوسوسـون لـك ليفسـدوا دينـك. أنـت بحاجـة إلـى عشـرين ميسم فـي رأسـك. كـان الحطـاب سلاّم علي يجلس أمام الفقيه، يقلّب كفيه في حيرة. قال:

– لكن يا فقيه، أنت قُلت لنا أنه مجنون، ولا حرج على المجانين!

مسح الفقيه لحيته ونظر إلى وجوههم وقد عبس وجهه:

– لا تكونوا أغبياء، المجنون أحياناً يكون في كامل عقله، وإلا لما أكل وشرب. تدخل منصور حزام الملقب(بالأهبل) يتحدث مع الفقيه، قال ببراءة:

– سيحاسبه الله على فعلته يا فقيه، وليس نحن.

أنتصب الفقيه والشرر يتطاير من عينيه، يهز عكازه في الهواء؛ فخفتُ أن تقع على رأسي:

–لا يا أهبل، لابد من الدفاع عن دين الله من الكفرة والملحدين.

وأنا أتحسس جرح المكواه في رأسي، رحت أعزّز بما جاء به القرآن على صحّت تفسيري. كنت أعرف أن أدلتي لن تجدي نفعاً معه، فمن الصعب إقناع المتعصب لفكره الموروث، كنت أود أن أكسب الجولة هذه المرة وأهزم الفقيه.

نظر الفقيه إلى وجوه الأهالي من حوله، وهو يحس بفشله أمامهم أخذ يقول وقد قطب حاجبيه:

– أترون يا أهل القرية، إنه يفسر القرآن على هواه، هذا كُفر. كيف تسمعون له! لقد أفسد الشيطان عقله... ثم نظر إليّ بغضب وهو يتمتم "ما لكم إلا "محمد خميس[6] يجلدكم يا كفرة..." تفكيره أرعبني وخفت أن يشي بي إلى الأمن الوطني. سمعت الفقيه قبل عودته إلى داره

[6] رئيس جهاز الأمن الوطن

والغضب يتملكه، يستغفر الله، يتبعه بعض الغاضبين من أهل القرية، يتحدثون فيما بينهم:

– هذا ملحد، شوعي، ماذا ترى نعمل فيه يا فقيه؟

– لن تمطر السماء مادام البعض يسكت عن هذه الزندقة، الدفاع عن الاسلام فرض واجب، من مات وهو يدافع عن دينه له الجنة. وراح يقرأ عليهم بعض آيات الجهاد في سبيل الله. وصل الفقيه إلى داره وأخذت السحب تتجمع وكانت ليلة ماطرة، سمعنا فيها هدير السيول في وادي شوكة، وتدفقت الجداول من الجبال.

عزفتُ عن تجمعات الأهالي أسبوعاً، إلى أن ألحّت نجوى عليّ أن أختلط بهم، وجدت رأيها على جانب من الصواب، فذهبتُ بعد يوم ماطر إلى دار صالح علي. غالباً ما يجتمع الأهالي عنده فهو رجل له كلمته في القرية، عاش عشرين عاماً في الخارج، له ديوان واسع، يلتقون عنده لمضغ القات. نظرت إلى الحاضرين لم يكن الفقيه بينهم. كانوا يحشون أفواههم بأوراق القات، ويتناقلون قصبة المداعة[٧] من فم إلى فم، يسرد البعض منهم الفكاهات. ثم انتقلوا في الحديث إلى النزاع القائم بين قائد علي وعبده راجح على حدود حقولهم. أضحكني النزاع القائم بينهم منذ عشر سنين في المحاكم، حول شجرة سدر نبت بين حدودهم. ثم راحوا يترحّمون على عبد الصمد الذي راح ضحيّة نزاع بينه وبين سلّام حزام حول مجرى مياه الأمطار لحقولهما

[7] نرجيلة

المتجاورة، بعد أن ضربه سلاّم بعصا غليظة في الرأس، مات على إثرها عبد الصمد على الفور، والسبب في ذلك أن حاكم الناحية لم يفصل النزاع بينهما. ردد الحاضرون "الله يرحمك يا عبد الصمد، كان يحب الأرض كثيراً".

بعد أن طحنت ضروسهم الأوراق وانتفخت خدود الأشداق، بدأت همومهم تنضح، وشعر الناصية يُعصر. وعود القات يُكسر لتنظيف القات بين الأسنان. تأملت فيهم وهم يمضغون القات بأشداق التجلي.

كان سالم علي يمسح شفتيه يقول لنفسه "بخيل، توفر الفلوس لغيرك... " غضبت وقلت له:

-كيف الحال يا سالم، كيف قات اليوم؟ انتبه كأنه كان في غفوة:

- ها، تمام... الحمد لله، متى ستعود إلى المدينة. وعاد يحدث نفسه "لماذا يسألني أنا فقط من بين الكل! والله إن الجن في رأسه يخبروه بما في رأسي وصدَق الفقيه". نظرت إليه ضاحكاً:

- يا سالم لا توسوس كثيراً.

صمتَ كالمرعوب وهو يزم شفتيه.

* ١٩ *

حضرتُ صلاة الجُمعة في مسجد القرية المتواضع، جوار الطريق المؤدي إلى قلعة المنصوري. كان الفقيه يخطب كالعادة، وبعد أن حمد الله وأثنى على رسول الله محمد (ص) انتهى به الأمر إلى الوعظ والإرشاد، الذي خلب القلوب والألباب. ختم خطبته الأولى ثم بدأ

بالثانية بهدوء ووقار. بينما كنت أستمع إلى الخُطبة وعقلي يجوس في أذهان المستمعين حولي، هذا الفضول الذي ما انفك يجرّني لمعرفة خفايا البشر، فقرأت في ذهن محمد ناصر، كان يجلس بجواري "الفقيه يُحرّض الناس على عبد الفتاح، الله يعلم مَوْ يشتي[8] منه" ثم قرأت ما يدور في ذهن غالب عبده وهو على شمالي "أين شرد الجَدي حقّي؟ ما روّحش من أمس. وهذا الفقيه طوّل بالخُطبة وهو يسبُّ الكفار، ما فيش كفار بيننا! أشتي أرّوح أدوّر(أبحث) على الجدي قبل السرق ما يسرقوه قبل العيد...". أعادني من شرودي عن الخُطبة، حين رفع الفقه عقيرته كالمكروفون الذي لا حاجة له وهو يقول:

– كثير مِنَ الناس يفسّر آيات الله كما يهوى، والله لقد ضلَّ وغوى، يأخذ بما تشابه من القرآن المُنزل من الرحمن، ويجعلها قرينة لمزاعمه كما زيّن له الشيطان، قال تعالى ﴿ *هَو الَّذِي أَنْزلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ ءايَتٌ مُّحْكَمت هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَآخرِ مُتشبِهتٍ فأمّا الذينَ في قُلوبِهم زَيغٌ فَيتّبِعُون مَا تَشَابَهَ مِنْهُ اِبْتِغَاءَ الفِتْنَهِ وابْتِغَاءَ تأوِيلِه* ﴾.آل عمران ٧ أيها الناس لقد بدأ الشيوعيون يندسون في قريتنا فاحذروهم، فالدفاع عن الإسلام فرض واااجب... اختتم خطبته بدعاء الهلاك على أعداء الإسلام، ومن يدور في فلكهم وأن يحفظ الله ديننا من كل مكروه.

[8] يريد

حين بدأت أقرأ الأفكار، لم أكن أفكر بعاقبة ذلك الأمر، كنت أفكر أنني سوف أحمي نفسي من شر الناس. كان سروري بهذه الموهبة طاغ على كل سلبياتها... لكن قراءة أسرار النفس البشرية أودت بي إلى هذه المصحة، وأحياناً أجد نفسي أنني في حلم أعيشه إلى الآن، بين هؤلاء التعساء، وأنّ ما أسطره هو وسوسة عقلية لا غير، وأنكم تقرؤون هلوسة مجنون.

وجدت الكتابة رئة كبيرة أتنفس من خلالها، وبالتالي أتخلص من شوائب النفس، لهذا ترك الأطباء لي العنان في هذه المصحة؛ لأبث ما في عقلي، لكنهم لم يلتفتوا إلى ما أكتبه، ولم يعرفوا معاناتي الحقيقية إلا مدير المصحة، الذي كنت أراه أنه واقفاً مع من تآمر ضدي. كنت أكتب في الصباح الباكر، وبعد تناول المرضى أدويتهم مساءً الذي يذهب بهم إلى نوم عميق. أما أنا كنت أخدعهم بتناول الدواء الذي يرهقني.

* ٢٠ *

ذهبت قبل العيد إلى سوق القرية ووجدت قائد الملقب بقيس جلست أحدّثه وهو صامت. حاولت أن أذكّره بماضيه لعلّه يتذكّر شيئاً، قلت له:

– يا قائد، أمازلت تحب (صفيه)؟ وجدته لم يهتز له طرْف، كأنّه لم يسمعني. والغريب أن قيساً حين أحب صفيه حبّاً عفيفاً وهام بها، كان متزوجاً من ابنة قاضي القرية المقابل لقريتنا، لِمَا كان يتمتع به

قيس من منزلة رفيعة وبأخلاق عالية. يعمل بائعاً للقات، يحظره من تلك المنطقة التي تسكن فيها حبيبته صفيه، ابنة رجل يمتلك مزارعاً للقات. حين أراد قيس الزواج من صفيه، طلب أبوها مهراً كبيراً لم يقدر قيس على دفعه. بلع قيس حُزنه جمراً وفقد النطق على أثر ذلك، وظل يهيم في ملكوت الوجد. انتشر خبر هيام قائد بصفية، واختلفت الروايات حول السحر الذي أصابه، منهم قال "سحرته بسحر رمت به في مقبرة غابرة" ومنهم قال "سحرته بجمال يسلب العقل" حزنت عليه وتوجهت بوجهي نحو ديار محبوبته، ورحت ألقي قصيدة قالها شاعري المفضّل في حُب قائد لصفيه، لعلّ الأثير يأخذ كلماتي إليها، لتفك سحرها عنه:

يا مَنْ هواها المُرُّ قيّدَ قائدا ... فُكّي قيودكِ قد طغاهُ وعَربدا
طحَنَ الهوى فيهِ مَناسك عُمره ... فقضى الحياةَ مُصابراً مُتجلّدا
الدمعُ في عينيهِ شلاّلُ الأسى ... ما سالَ منها سائحاً فتجمّدا
خمسون عاماً ظلّ فيها صامتا ... والقلبُ يبكي واللسانُ تجلمدا
فُكّي قيودكِ صار شيخاً فانياً ... والقلبُ مُضنىً في أساه تسرمدا
في عشقهِ عشقَ القيودَ على المدى ... كسِوار دُرٍّ فيهِ زيّنها اليدا
يا عاشقين تَعلّموا مِن عِشقهِ ... كيف الوفا يحيا الدُّنى ويُخَلّدا
قد صار شَيخَ العاشقين على الثرى ... نَقَشَ الهوى للعاشقين وعبّدا

بدأ توافد المسافرين إلى قُراهم، لقضاء فترة العيد مع أهاليهم وزوجاتهم، اللواتي يدفن الرغبة فيهن تحت زفرات الصمت، لكنها تظهر بصورة أُخرى، مثل زوجة عمر الحاج، الغائب زوجها عنها في عدن منذ سنين، حينما مررت بجوار دارهم سمعتها تدندن وهي تطحن حبوب الذرة:

الا، لَيهْ، لَيهْ، لَيهْ... عدنْ، عدنْ *سَلّطْ لكِ البوارقْ.. كم مِن حبيبْ لِقريتُهْ مُفارقْ*...

وكثيراً ما سمعت مثل هذه الأهازيج الشعبية في القرية، التي يتداولونها منذ القدم.

ذات مساء جلستُ مع نجوى في سطح الدار، وبناتنا من حولنا، ننظر إلى النجوم. كانت نجوى تحدّث نفسها "أترى هل عبد الفتاح مازال يفكر في أمة اللطيف، منذ أسبوع لم ينم معي في الفراش!، أشعر أنني فشلتُ في مهمتي لينساها ... وهذا عبد ناجي الشُعبي الدجّال ابن الدجّال، حجابُه لم يفد بشيء؛ بل زاد عبد الفتاح فوق الجُنون جنوناً، أخذ مني ألف ريال قيمة عجل". لدهشتي وغضبي، قُلت بغتة:

– ألف. غير معقول!

– مَنْ قال ذلك؟ لم أفتح فمي يا عبد الفتاح. أنكرتْ أنها أعطته شيئاً وأن الجني هو مَن وسوس لي بذلك. صمتُّ بحزن فأنا لا أستطيع

إثبات شيء لم تتفوه به نجوى. لم تدرِ أن غصُون هي مَنِ استنزفت نبعها. قربتُ نحوها ألاطفها فابتسمت قالت:

– يا عبد الفتاح، القرين الذي في رأسك يخيفني.

نزلنا من السطح والحُب يجمعنا بين أحضانه حتى الفجر، وكان إفطاري ذلك اليوم كوجبة إفطار غصُون، حتى أنها أطعمتني بيدها. قبل الظهيرة ذهبت توقد جمراً وشوت سنابل الدُّخن والذرة الطرية وقدمته (جهيش) لذيذاً.

مرض الفقيه وقيل: إنني سحرته كما سحرت بقرة العمة تُفاحة. ومنهم من قال" إنني أرسلت عليه الجن يصيبونه" زرته مع أهل القرية وسنحت لي الفرصة أن أهمس له مبتسماً:

– دواؤك عندي، ردّ بصوت واهن وهو يحرك سبابته:

–الشافي هو الله.

– لقد سامحتك وعفوت عنك، علينا أن ننسى الماضي ونبقى صديقين.

حدّجني بنضرته خاطفة وهو يبتسم لي، وكانت تلك البسمة بداية شفاءه. حين شفى الفقيه أصبحنا صديقين. أستغرب أهل القرية من سرِّ صداقتنا وحضر أيضا لمصالحتي أناس وقفوا إلى جانبه سابقاً. قال عمر عبد الله، ضاحكاً:

– أين خُطب الفقيه، حول الزنادقة والشيوعين.

ضحك سلام علي وقال:

– يقـول الفقيـه، إن الجـن الـذي فـي رأس عبـد الفتـاح أسـلموا هههههـه. كانت صداقتي مع الفقيه حديث السُمار، يتداولونها من دار إلى دار.

* ٢١ *

أقبـل العيـد ببهجتـه وأفراحـه، لكـن فـي القُرى للعيـد مـذاق آخـر أفضـل مـن المدينـة، يكفيـك أن تـرى الفرحـة فـي عيـون البسـطاء مـن الفلاحـين والأطفـال. تجـد النسـاء تُـزيّن أيـاديهن وأقـدامهن بالحِنـاء، والمنـازل تـزين أسـطحها بقناديـل مشـتعلة، مـن رمـاد مشـبّع بالكيروسـين، والطُّمـاش[٩] تُزيّن سماء القُرى، وتصبح أيامه موسماً للأعراس.

دعـاني أحمـد عثمـان مـن أهـالي القريـة، لحضـور زفـاف ابنـه ياسـين؛ لنُحضـر الحريـوة [١٠] مـن قريـة بعيـدة. بعـد أن تنـاول أهـل القريـة غـداءهم الدسـم والقـات، وكـذا الأخدام(المهمشـين) الـذين قُـدّم لهـم طعـامهم وشرابهم في صحون خاصة بهم.

جِـدّد لنـا مقبـل الفقيـه سـاعة دخـول الحريـوة بيـت الحَـرو[١١]، السـاعة السادسـة مسـاء. مشـينا وقـت العصـر يتقـدّمنا الأخـدام وهـم يقرعـون الطبـول بهمـة، متـوجّهين نحـو قريـة الحريـوة، ومجموعـة مـن الشـباب ترمي الطُماش[١٢] عالياً في الهواء، بين الحين والحين.

---

[9] مفرقعات

[10] العروس

[11] العريس

[12] مفرقعات

وصلنا الى بيت العروس، والبعض منّا يرمي الطُماش في الجو، وازداد الاخدام يقرعون الطبول بقوة. استقبلنا أهل العروس أيضاً بحرارة الطماش، وكان هناك ثمة رجال يطلقون الرصاص في الجو، كأنها معركة حامية الوطيس وليس فرحاً، فشعبنا يُعبّر عن أفراحه بالرصاص والقنابل والمدافع، إن وجدت! عدنا إلى بيت العريس يتقدّمنا الأخدام، وهم يقرعون طبولهم أقوى منذي قبل وكأننا كسبنا معركتنا! كانت العروس تمشي خلفنا رويداً رويداً كعادة القُرى، وتمسك بالرداء الأبيض الذي يُغطي وجهها حتى الصدر والريح يعبث به، وكانت المروّحة[13] تساعدها على المشي. وصلت العروس الساعة الخامسة والنصف وقد بدأ هطول المطر. أصر الفقيه ألا تدخل العروس دار العريس، إلا الساعة السادسة تماماً، كما تقوله النجوم في اعتقاده.

بقيت العروس بجوار الباب، تحت مَظلّة تحميها من وابل المطر حتى الساعة السادسة، وقبل دخولها ذُبح كبش؛ حتى لا تكون شؤماً على الدار. جلست بجانب العريس وهي مبللة قليلاً ترتجف من البرد، والنساء ينتظرن بلهفة متى ستكشف عن وجهها، إلى أن أتى والد العريس وبيده مبلغاً من المال، أعطاها لترفع الرداء الأبيض عن وجهها، ومبلغاً آخراً أعطاه للعريس يقدمه للعروس عند الذهاب إلى فراشهما لفضّ الخاتم وهمس في أذنه " انتبه، رجال القرية سيسخرون منك إن لم تفُض البكارة الليلة..." أزاحت العروس رداءها عن وجه لم

[13] مساعدة العروس

يعجب العريس. حينها قال لنفسه "لولا الملامة لأرجعتك إلى بيتكم... يا الله خدّامه لأمي"

* ٢٢ *

بدأ السمَر يحلو والقات يوزّع مرة أخرى على الحاضرين. سخنتا خادمتان دفوفهن، وبدأتا بقرع الدفوف والغناء الريفي بجوار العريس والعروس وهما جالسان بجوار بعضهما يغطي أرجلهما معاً شال أبيض. واستمر الغناء والرقص المُختلط نساء ورجالا معاً إلى جُنح الليل. خرج الضيوف وذهب العريس بعروسه إلى فراش النوم، أمّا والديّ العريس لم يغمض لهما جفن مثل هذه الظروف وعادة يبقيا يتنصتان خِلسة خلف الباب على ابنهما وعروسه.

دليل شرف العروس بكارتها، وإلا قامت عليها القيامة، أو يعيدها العريس إلى أهلها بدون كرامة. لكن ما حدث كان العريس ياسين هو السبب في الشك في عروسته. ففي اليوم الثاني صباحاً، كان بعض أهل القرية ينظرون نحو بيت العريس، يتساءلون: لماذا عروسه لم تظهر طُرّاحة (الملاءة) ليلة الزفاف على سطح دارهم بعد غسلها!

شكّ أهل القرية أن العروس لم تصل بكراً... لكن بعد أن عرفوا أن والد العريس، وضع أمام باب غرفة العريس صباحاً حزمة من علف الأثوار وماء مالح، عرفوا أن العريس نام جوار عروسه مثل الثور الكسلان. ضحكوا كثيراً واستغفروا الله على شكّهم في شرف البنت. لكن زوجة أحمد عثمان والدة العريس، أرجعت فشل ابنها تجاه

عروسه ليلة عرسه، لتجاهل زوجها في تنفيذ مولد للولي أحمد ابن علوان، ونفذ أحمد عثمان وعده اليوم الثالث من العرس وراح يعد العدة للمولد.

أستمر المولد لمدة ثلاثة ليال، وفي ختام الليلة الثالثة والمهمة، بدأ الحاضرون، يرددون بعد المُنشد (مرحباً يا نور عيني... مرحباً جِدَّ الحُسينِ...) فوقف الحاضرون جميعاً مُنتصبي القامة، رافعي الرؤوس، يقرؤون المولد بصوت عالٍ وبعد عشرة دقاق بدأ البعض بالاهتزاز والتوتر. وهناك من أصبح كالزُّنبرك في هزّاته، إلى الأعلى والأسفل. بعد أن أرتعش "قاسم" كثيراً، هتف "يا ابن علوان بِغارتك" وأختطف جنبية (خنجر) محمد صالح الملقب بزُربة، وأزاح فوطته المتسربة على فخذ رجله اليُمنى، وأتكأ على أطراف أصابع أرجله، في شبه جلوس. وراح يضرب فخذه بشفرة الجنبية عدة ضربات قوية، حتى كلّ من الطعن، دون أن يسيل الدم. ثم عاد يقرأ المولد مع الأخرين كأن لم يحدث له شيء. وهكذا يختار الولي أطهرهم مُن يطعن له أو يجذب حسب اعتقادهم، وهناك من ينطح الجدار كالكبش، إن لم يجد خنجراً إلى أن يمسك به الحاضرون، ومن ليس أهلاً للطعن، يمسكون به خوفاً أن يشطر فخذه نصفين.

* ٢٣ *

مر على وجودنا في القرية أكثر من أربعين يوماً، شعرنا أننا كنا بحاجة ماسة لهذه الرحلة. كانت ذكريات لا تنسى مع: الفقيه،

غصُون، ناجي الراعي، قبر الباهوت... ونجوى التي تراني أنني أصبحت أسوأ مما كنت عليه قبل رحلتي إلى القرية.

ذهبنا نُرتب حقائبنا بعد أن عزمنا على العودة إلى صنعاء، وفي الصباح الباكر تزودنا بطعام القرية، من صُلَع[14] ولحوح[15] والسمن والبيض البلدي، الذي أحضره ابنة خالها فتحية وبنت عمها أروى، وبعض نساء القرية، حين أتين يودِّعن نجوى، رأيت العمة نَعيمه تبكي على فراقنا وهي تهمس في إذن نجوى:

– ربنا يشفي عبد الفتاح

وفتحية تقول لنجوى:

– ربنا يعينك.

مشت نجوى إلى طريق المركبات بخفّة ونشاط، دون أن تتعثر في طريق العودة. ضحكتُ معها:

– يا سلام يا نجوى عدت إلى شبابك، تمشين كالغزال على الرغم أننا لم نبق في القرية سوى فترة بسيطة. ما رأيك لو تبقين هنا سنة لتعودين رشيقة كما كنت في الصِغر. قالت بغضب وهي تمسح عرق جبينها:

–لتنال مرادك وتتزوجها.

– يا هذه الصنعانية التي عشّشت في رأسك.

---

[14] خبز ذُرة يطبخ في التنور

[15] خبز رقيق جداً

أزداد غضبها وجلست على صخرة ترتاح وراحت تقول:

– والله ما عشّشت في رأسك وسحرتك إلا أنت...

وصلنا إلى طريق السيارات منطقة حيفان، حيث توقّف شق الطريق هناك. كان ذلك بعد أن بلغت القلوب الحناجر، بدونا كأننا نصعد نحو السماء، كنا نقف عدة مرات لنستريح. وجدتُ سيارة سائقها من قرية مجاورة لقريتنا، اسمه عُمر كان يبحث عن مسافرين، بعد أن تزاحم أصحاب المركبات على خط سير القرية –العاصمة. أخذت مكاني بجوار السائق الذي بدت عليه برآءة الرجل الصبور. سارت السيارة تعانق قمم الجبال، وتشق الوديان والسهول. بدأ السائق يحدثني عن أخبار متفرقة، تبدو ثقافته لا بأس بها، على الرغم من أنه لم يحصل على الشهادة الابتدائية كما أشار لي. بدأت أناقشه بأمور فكرية وسياسية، أعجبته أفكاري وآرائي. حينها قال لنفسه "يقولون مجنون، والله ما مجانين إلا أصحاب قريته" ضحكت وقلت:

–تفكيرك سليم يا عمر، نظر إليّ نظرة خاطفة والدهشة في عينيه وسألني:

– ماذا تقصد؟ برّرت له أنّ حُكمهُ في الأشياء سليماً. بدأ الصمت يسود السيارة، وهي تعدو كحصان يُرخى زِمامه في طريق غير معبّدة، والسائق يُحدث نفسه في أمور خاصة مما أخافني:

"عبد الصمد هذا اللعين، ينافسني على هذا الخط، إذا لم يعمل في خط سير آخر، سأدمره هو وسيارته... سأقتله". خفت من

نواياه. وبعد صمت تحدثتُ معه عن دخله المالي من هذا العمل، قلتُ:

–أنت تعرف يا عمر، أن الأرزاق بيد الله، ولا يمكن لأحد أن يأخذ من رزق الآخر شيئاً إلا بأمر الله ... وقد كنت أعرف، أن عبد الصمد سائق متعاون مع المسافرين وطيباً معهم.

صمت عمر كمن بلع لسانه وكان يرمقني شزراً! كاد أن يصدم مركبة أمامه في خط السير المعاكس. عاد يحدث نفسه " كيف يعرف ما يدور في عقلي...؟ والله إن كلام الفقيه صحيح. الجني في رأسه ينقل له الأخبار، لكن الفقيه أخيراً قال إن الجن خرجوا من رأسه، وجميعنا نعرف أن عبد الفتاح والفقيه أصبحا صديقين بعد عداوة". كاد يصدم سيارة مرة أخرى، فنجونا من موت محقق في إحدى المنعطفات الخطرة. أخبرته أن يأخذ حذره وأن على السائق ألّا يفكّر أثناء القيادة بأمور تزعجه، فالركاب أمانة في عنق السائق، حتى يوصلهم إلى بر الأمان. تمتم مبتسماً "خذ الحكمة من أفواه المجانين...".

أوقف عُمر مركبته بالقرب من قلعة سُماره، حين رأى بائعي القات، واشترى منهم ما يكفي لإطعام خمسة تيوس، بعد أن تفحّصه أفضل من طعامه، ترجلنا نحن من السيارة، وذهبنا لتناول طعام الغداء في مطعم المقهوية "صباح" قدمته فتاة نجلاء، بيضاء مُلثمة. تناول عمر غذاءاه أيضاً، وكان هو وصباح يتراشقان بالنظرات كأنهما عاشقان، وتسنى لي معرفة ما يدور من مغازلة ووعود بينهم.

الفصل الثاني

الغوص في المتاهة

(حين تتعمق في المجهول، يطغى شوق المعرفة على كل أنواع الخطر، وتبذل حياتك من أجل المعرفة)

* ١ *

وصلنا إلى منزلنا. وقف السائق ينظر نحو المنزل يقول لنفسه "من أين لعبد الفتاح هذه العِمارة، وهو يعمل في فرزة الباصات؟، هؤلاء الموظفين سرق "ابتلعت الشتيمة ورحت أنزل حقائبنا وناولته أجرته ومضى. وجدت الكلب كوبي رابضا أمام باب منزلنا نظر نحوي نظرات خاطفة ثم مشى بعيداً. ونحن نفتح باب الشقة تفاجئنا حين شاهدنا أثراً لمحاولة كسر القفل! تساءلنا "أترى مَن حاول سرقة منزلنا؟".

نهضتُ في الصباح وأنا مشتاق إلى عملي، بعد إجازة طويلة حُبلى بالأحداث. عند خروجي من المنزل، وجدت الكلب رابضاً أمام الباب، نظر إليّ نظرة عتاب، أو هكذا رأيت. عرفت ما كان يريد قوله بالأمس حول سرقة بيتي، وتذكرت أثر كسر قفل الشقة. قلت:

– شكراً لك يا كوبي على حراسة منزلي.

علمت فيما بعد أنه كان ينام بجوار باب منزلي، طوال فترة غيابي. وبينما كنت أقف بجوار كوبي مساء اليوم الثاني أقبل ناصر ابن جارنا يصافحني، فإذْ بكوبي ينبح نحوه ثم هدأ، ولكن صوته كان يتغلغل في سمعي "أمسكه... هو اللص ... أقبض عليه. هيا اِقبض عليه". كنت ألتفت إلى كوبي متعجبا! هل أنا أدرك ما يقوله أو يتهيأ لي ذلك ، وراح هو يردد "هيا اقبض عليه. لماذا لا تقبض عليه". كان يزمجر، وأخذ يضغط بيديه على قدمي ناصر بقوة، أشرت له أن

يـذهب، فابتعـد قـليلاً، لكنـه ظـل يراقبنـا أنـا وناصـر. حـدّث ناصـر نفسـه "هـذا الكلـب كأنـه يـود أن يفضـحني. لكـن مـن سـيفهمه ". عندئـذ عرفـت اللـص، لكـن لـم أسـتطع أن أعمـل معـه شـيئاً. بلعـت غيظـي وشـعرت بحرقـة فـي المعـدة، قلـت لنفسـي "الأهـم أن تعـرف عـدوك" لكننـي تألمـت مـن جـار لا تـأمن شـره. كنـت أود أن أخصـص وجبـة غذائيـة لكـوبي، لكنه كان لا يتناول غذاءه إلا من يد حسن ابن جاري التاجر.

حضـرت مـريم لزيـارة نجـوى، وهـي تبـدي شـوقاً لهـا، تسـاءلها: أيـن هديـة العيـد؟... وكنـت أنـا فـي الغرفـة المجـاورة، اسـتطعت أن أسـمع حوارهما:

– كيـف حـال عبـد الفتـاح الآن؟ هـل اسـتفاد مـن عـلاج السـيد الشُـعبي؟ هـل اسـترحتم فـي القريـة، سـمعنا أنـه ضـاع فـي القريـة، أراك غيـر سـعيدة يـا أختـي. بكـت نجـوى وهـي تخبرهـا بـأنني ازددتُ سـوءًا، ونبشـتُ قبـر ولـيَّ الله البـاهوت، أصـبحتُ أحـدّث نفسـي، ولـي قـرين فـي رأسـي يخبرنـي عمّا يفكر فيه الناس.

كانت مريم تنصت إلى نجوى والدهشة في عينيها. سألت:

– لو سألته عمّا تكتمي في قلبك، هل سيخبرك؟

– نعم، سيخبرك.

– موش معقوووول زوجك مزوج بجنية، تنقل له الأخبار ثم ضحكت:

– كنـتِ يـا صـاحبتي تخـافين أن تخطفـه إنسـية وهـا هـي خطفتـه جنّيـة. فكرت نجوى قليلاً ثم قالت:

– كلامك صحيح يا أختي، أظن اسمها "غصون"، فقد سمعته يقول أثناء نومه: رويداً يا غصُون، معدتي ملآن. لم أستطع أن أكتم ضحكتي؛ فضحكت عالياً. خافت مريم وخرجت مرتبكة وهي تقول: الله يعينيك يا صاحبتي ... مع السلامة.

–عريس والله عريس، للقاء الأحباب يوم الخميس. حلقت ذقنك، تعطرت، ما شاء الله في كامل أناقتك، على شأن حبيبة القلب، يكفيك الجنّية غصون. هكذا حدثتني نجوى وهي تبدو غاضبة، وأنا أستعد للذهاب إلى مُنتدى السلم، أكتم ضحكاتي، ثم أردفت بعد خروجي:

– لا تنسَ أن تأخذ لها هدية العيد... لقد اتصلت اليوم، ثم بدأت تسبُّ أمة اللطيف كعادتها.

كان نقاشاً حاداً في المنتدى حول تسليح الفتيان بالسلاح الأبيض، الذي يرى الكثير من الناس أنه زينة، فيما يراه البعض الآخر أنه استعداداً للرجولة، ومَن يراها فتكاً لبراءة الأطفال. عدت إلى بيتي ونار الغيرة، تتأجج في قلب نجوى. نامت تلك الليلة بعيداً عني وهي تقول لنفسها "يجب ألا أحرمه مما أشتهيه أنا أيضاً. لو يُحاول التقرُّب منّي. سأنسيه أمة اللطيف، هذه الساقطة تريد أن تخطفه مني، هيّا اقترب نحوي...هيّا، سأنسيك الربحة أمة اللطيف"

تركتها تُعاني سوء ظنّها بي، وأنا أضحك في نفسي، فإذا بها تلتصق بظهري. ألتفت نحوها وانصهرنا معاً، ونالت جُرعتها المعتادة غير منقوصة. عرفتْ أنني لم أفرط بشيء منها.

* ٢ *

علمتُ أن صديقي سعد الفرح، قد خروج من سجن الأمن الوطني، ذلك الرجل المخلص لمبادئه. كنت في باب منزله الساعة الرابعة مساء. فتح الباب لي ورائحة الخمر تفوح منه، تلفتَ يمنة ويسرة، يراقب هل هناك حُرّاب[١٦] يراقبني وأنا أدخل منزله وجدته منكسراً والذلة في عينيه. راح يحدث نفسه "هل أخبره بما فعلوه بي... لن أنسى ذلك أبداً". بكى فجأة أمامي وهو يقول: كلاب، لقد عاملوني معاملة سيئة جداً... تبّا لهم أظن يا صاحبي أن هذا الجهاز الأمني لا يعمل لصالح البلاد. فقد انحرف عن مساره الوطني، لم يكن يريد هذا مؤسسه الرجل الوطني سلطان أمين القرشي، تحت مُسمّى الأمن الداخلي. وجدت كثيراً من الوطنيين الشرفاء قابعين هناك في الظلمات؛ لأن لهم وجهة نظر مختلفة لإدارة دفة الحُكم. لا ندري لماذا الحمدي يقف ضدنا. قطعت حديثه وقلت:

– أظن يا سَعد، أن الرئيس الحمدي له وجهة نظر أُخرى في هذا الأمر، هو لن يظهرها الآن فهو وطني مثلنا، لهذا الناصريون يساندونه كثيراً وهو يقرّبهم حوله، ويمكّنهم من الوظيفة العامة، وقد حضر مؤتمرهم الرابع المنعقد في الحديدة، وقيل إن الحزب برئاسة عيسى محمد سيف، رشحه أميناً عاماً للحزب، ولكن الحمدي رفض

[16] لقب مخبر الأمن الوطني

المنصب وقال لهم: أنا رئيس دولة، ولن أكون رئيساً لحزب ما. ضحك سعد وقال:

– ما قلته صحيح، لكن الحمدي قائد ذكي، هو لا يريد أن يُظهر أنه ناصري أمام العامة، ويريد كل الأحزاب أن تميل إليه، ويكون رئيساً للكل بعد أن أصدر القاضي عبد الرحمن الأرياني أمراً، بمنع التحزُّب وأيدته السعودية في هذا الأمر. خرج سَعد من غرفته ثم عاد يحمل الشاهي وهو يحدث نفسه "يبدو يا عبد الفتاح أنك ناصري ولا تحب أن تُظهر ذلك" ثم قال:

– فعلاً هو عبقري، ولو كان قَبلَ منصب الحزب الناصري، لكان أنكشف أمام السعودية، لهذا هو يسعى الآن إلى تأسيس المؤتمر الشعبي العام، ليضم كل الأحزاب إليه ويطويها تحت جناحه.

– كلامك في محله، لكنه سينكشف قريباً أمام السعودية، فهي تترصد خطاه في تقاربه مع الجنوب، ولقائه مع الرئيس سالمين.

– يا صديقي، الحمدي رجل غامض ومحيّر في سياسته إلى الآن. تراه يميل للجنوب وهو يحارب الاشتراكيين، مختلف مع الخونجيين فكرياً، وقام بتأسيس الهيئة العلمية للمعاهد الدينية، ناصري ولا يود أن يظهر ناصريّته، يضعف شيوخ القبائل وهو الذي شكلّ لهم بعد حركة الثالث عشر من يوليو(١٩٧٤م) المجلس الأعلى للقبائل اليمنية. رد سعد على حيرتي وقال: أظن أن خطة الرئيس في تقاربه مع الإخوان، وكذلك مع قوى رجعية لها ثقلها، هو تلبية لدول الجوار. فهو لن يستطيع أن يكمل مشروعه الكبير في اليمن، ليمتد تأثيره إلى محيطه

العربي ويكون قوة مؤثرة. إلا بالتحالف معهم ليطمئن دول الجوار، والإمبريالية العالمية. ألا تراه يُسرع في الخُطى لتحقيق هدفه؟ قلت له:

– ما تقوله صحيح، هو يسرع في الخطى لتنفيذ مشاريعه، وهناك مشاريع أنجزها في زمن قياسي، وخطته الخمسية الأولى يمكن أن تكمل في زمن أقل مما خطط لها.

– نعم، ولا تنسَ عبقرية الحمدي، في معرفته للتركيبة الثقافية للشعب اليمني، والتعاون فيما بينهم فانطلق من ثقافة وفلسفة الشعب، وشكّل الهيئة العامة للتطوير التعاوني، التي شكّلت دعماً لمشروعه الوطني في بناء الكثير من المشاريع. صمت سعد قليلاً يُحدث نفسه "لقد تأخرتِ يا نجلاء عن العودة من الجامعة" ثم راح يقول لي:

– لكنه أغفل شيئاً مهماً وهذا الشيء يحيطه من كل جانب، سيطبق عليه جبلا نقم وعيبان معاً، وهم زعماء القبائل اللذين لديهم نفوذهم القوي في الساحة، ولهم علاقتهم القوية مع السعودية. صحيح أن ثورة السادس والعشرين من سبتمبر تخلّصت من حكم الإمامة الفردي، لكنها وقعت تحت تسلط مشايخ القبائل.

– أظن تشكيله الأخير للمجلس الأعلى للقبائل كان دهاءً منه، ليظهر أمام القبائل أنه في صفهم ويرعى مصالحهم، وفي نفس الوقت يضعفهم لمصلحة الدولة. وكذلك هو يضعف القوى اليسارية الآن، وأظنه سيكفّ عن اليساريين بعد تمكّنه تماماً من دفة الحكم. نهضتُ

لأعود إلى منزلي، وفجأة دخلت ابنته نجلاء، بعد عودتها متأخرة من الجامعة. سألها أبوها:

– لماذا تأخرت يا نجلاء إلى هذا الوقت؟ جاوبت بأنّ لديها محاضرات، انتهت الخامسة مساءً. صدّق الأب ما قالته ابنته. والحقيقة ليس كما سمعها الأب، فالابنة لم تصدقه القول، لم تكن تدرس إلى هذا الوقت. بعد حديثها مع أبيها، كانت تفكر في حيرة "كيف يمكن أن أخبره أنني كنت مع صديقي خارج الجامعة..."

عدت إلى بيتي وقصة نجلاء سعد الفرح، قد أدخلتني دائرة الشكوك بأسرتي. فلديّ ابنتان في الجامعة لم أفكر بالتجسس على أفكارهن من قبل.

*** ٣ ***

بدأ سيل من الأسئلة ينهال على رأسي، بِمن يا ترى ابدأ التحقيق معها؟ هل أبدأ بالكبرى نجاة، أم بفاتن؟ استدعيت نجاة للجلوس معي. سألتها وكأنني أُحقّق معها، حين كذبتْ الكذبة الأولى، صفعتها. دارت الأسئلة في رأسها لماذا أصفعها؟ كذبتْ الكذبة الثانية؛ فصفعتها ثانية والغضب يتملكني. قلتُ:

– إذا كذبتي عليّ مرة أخرى، سوف أحرمك من الدراسة.

جاءت نجوى لتدافع عن ابنتها. قالت وهي تنظر إلى نجاة:

– أبوك معه قرين في رأسه، قولي له الصدق يا أبنتي. حدثتْ نجاة نفسها "كلامك صحيح يا أمي". ثم قالتْ الحقيقة بعد ذلك. سألت

ابنتي الثانية فاتن، في سنة أولى لغة عربية والخوف يتقمصها، فاجأتني بقولها:

– لن أخفي عنك شيئا يا أبي. هناك شاب أعرفه، شربت معه عصيراً في كافتيريا الجامعة:

– كم مرة؟

– مرتين. صفعتها دون رحمة وقلتُ:

– بل عدة مرات. قالت والغرابة تملأ وجهها:

– ها. نعم، لقد نسيت.

– وهل تتحدثين معه خارج الجامعة؟

– مرة واحدة. صفعتها الثانية وقلت:

– بل أربع مرات.

تدخلت نجوى ومنعتني من ضربها، كنت غاضباً لعدم قولهن الحقيقة.

أخبرتهن أنهن لن يستطعن أن يخفين شيئا عني أو يكذبن عليّ، أما ابنتي الصغرى سَحَر أصبحت تخاف مني، على الرغم من حناني الزائد لها، وكأنها كانت ترى جنّي بجواري يخبرني بما أريده. نمت تلك الليلة وأنا أرى نفسي أعيش في عالم كله زيف وخداع.

فكرت اليوم الثاني من معاقبة بناتي بسبب الكذب، أن نخرج إلى حديقة للنزهة. ذهبنا إلى الحديقة وأخذنا مجلساً بجوار امرأة مصرية في الثلاثين من عمرها، طويلة متوسطة الجمال، سمينة، حولها طفلان يلعبان. كنت أرمق مسحة من الغضب يعلو وجهها، تقلّب

كفّيها، متوترة وهي تحدث نفسها، تأثرت في البدء لمأساة إنسان وهو في الغُربة، ولكنني بعد ذلك ضحكت كثيراً وهي تستعيد ذكرياتها مع زوجها، كانت تحدث نفسها بعصبية:

"آ، عرفتُ لَيه عقلك مُش معايّ اليومين دُول، حتى وأنت تُخيّط...آ، ما هو عقلك معها... تحب عليّا يا عبد الصمد واحدة تاني، يا أبو عين زائغة، زهقت من اللحمة الكثير، عاوز عظمة يا الكلب... عاوز تتزوج عليّا يمنية، ما تشبّع ده بالأول –لطمت بين فخذيها –أني حا أخذ عيالي وأمشي، وأسيبك للقبائل يأكلوك، دول مُش زينا... خلاص دني مُش حاجلس معاك، لمّا تيجي مصر، أني حاعرف إزّاي أربيك. جئنا نكسب قرشين وأنت عقلك بين الرجلين، يا ابن تفيده".

حين سألتني نجوى عن سبب ضحكي من دون سبب، قلت لها عن السبب. لمحتُ حزناً يكسو وجهها وهي تفكر أن قريني يخبرني بما قالته المرأة المصرية.

* ٤ *

ذات يوم مررت بجوار الجامعة بحي القاع، فدخلت لأصطحب بناتي أثناء العودة. جلست أتأمّل الطلاب ذكوراً وإناثاً في ساحة الجامعة. شاهدت أن الإناث لهن مجموعات خاصة وكذلك للذكور. لم أشاهد اختلاط بينهم. قرعت عصا الفضول رأسي؛ لأعرف ماذا يفكر الطلاب وهم يختلسون النظر إلى بعضهم، وكان هناك مجموعتان متجاورتان من الذكور والإناث. على الرغم من بعض الطلاب كانوا

يتحدثون معاً، إلا أن افكارهم كانت تلقي بظلالها على الفتيات اللاتي أمامهم كان أحدهم يحدث نفسه:

" آه، كم هي جميلة تلك الدعجاء، يكفيني نظرة...هيا التفتِ يا حلوة". ابتسمت تلك الفتاة، وكأنها تعرف أنها مراقبة بنظرات الشوق. وكانت بعض الفتيات يفكرن بشاب وسيم، مفتول العضلات بينهم. وجدت أن التفكير الجنسي، يأخذ وقتاً من تحصيل الطالب العلمي. انتقلت إلى مجموعة أخرى من البنات بينهن فتاة جميلة، وكانت هناك فتاة ترقبها بشبق. تتخيل أنها تنام معها في فراش واحد ترى نفسها رجلاً وأخرى كانت ترشق الحسناء، تحدث نفسها "آه، ليت لي مثل حُسنها..."

ألتفتُ إلى طالبين وهما يتحدثان معاً بصوت منخفض، أحدهما طويل، ذو شخصية جذابة، يلبس ثياباً عصرية والثاني قصير وسمين قليلاً يلبس ثيباً تقليدية.

كانا يجلسان بعيِّداً عني قليلاً على مقعد منفرد، كنت أرى تعبيرات حديثهما الجاد ولا أسمعهما. اشتقتُ أن أسمع حديثهما؛ فوجّهت سمعي نحوهما، وكأنني حُرّاب (مُخبر) أمن وطني يتنصت عليهما عن قُرب، حينها لم أعد أسمع حديثاً غير حديثهما، كمن يلتقط ذبذبات محددة. لم أعرف حينها أنني أسمع عن بعد كما وجدت نفسي فيما بعد. قال الأول وهو الشاب الطويل:

– أنا لا أصدق بيوم القيامة المزعومة.

– يدل كلامك هذا، أنك لا تؤمن بالبعث!

– وهل صدّقت أن هناك بعث، هذا هُراء...

– لكن رُسل الله اخبرنا بذلك يا صديقي.

– هذا اعتقادك أنت فيهم، لكنني أنا أرى الرُّسل بشكل آخر، أراهم: حُكماء، قادة، فلاسفة... أثّروا في الأمم بفكرهم. يا صديقي، يجب أن تشك في كل شيء، لكي تصل إلى جوهر الحقيقة.

رأيت الطالب الثاني ينقر الطاولة بقلمه، يحدّث نفسه "ما فيش فائدة منك يا سمير، ستشرفنا أنت وأصحابك السجن قريباً، أنت والشيوعيون أمثالك، تفسدون عقول الطلاب، عملاء مع أعداء الإسلام، سترون...". قام الطالبان وتصافحا كصدقين حميمين وذهبا كل في اتجاه. وجدت صديقه مخبراً من خلية الأمن الوطني، مقنّعاً بقناع الصداقة. لم أعد أحتمل الانتظار كثيرا في ساحة الجامعة، فخرجت دون أن أصطحب بناتي.

* ٥ *

من التواريخ التي حفرت في الذاكرة، أحدهم كان يوم السابع عشر من فبراير (١٩٧٧م) حين ذهبت إلى عملي، ولم أجد قلماً لأكتب، سألت صديقاً:

– ألديك قلم؟

أنكر أن لديه قلم، وحين قلتُ له أن في جيبه قلم أخضر اللون. أدخل يده وصاح:

– ما أدراك يا عبد الفتاح أنا قد نسيته، أخفتنا منك يا رجل.

– وأستطيع أن أخبرك بقدر المال الذي في جيبك.

– أتحداك أن تعرف. أنا نفسي لا أعرف!

– لديك ورقة فئة عشرة ريال، وورقتين فئة رُبع ريال، خمسة ورق فئة الريال..

لاحظتُ الحيرة والخوف فيه. وضع يده على جبينه. وراح يقول لنفسه "كيف عرف هذا الجني بما لديّ، وهو لم يرها ".

انتشر الخبر في معرفتي للأشياء المخفية في الأماكن التي أرتادها، وأصبح أغلب زملائي في المكتب يخشونني، يتحاشونني والبعض لم يُصدق ما قيل عني، يرتابون في صفة هي خارقة للعادة.

وجدتْ نجوى نفسها تحت عدسة مراقبتي، لهذا ضاقت من تجسسي اليومي على أفكارها. حدثتْ نفسها ذات يوم "هذي ما هيش عيشة، ما أستطيع التفكير بشيء يخصني". وجدتُ أن المرء يوّد أحياناً أن يخفي سرًّا في نفسه، لا يعرفه أحد سواه. أصبحت أشكّل مصدر خوف وقلق لمن حولي. كنت أشعر بأناس في الحي، حين يمرون أمامي يمشون سريعاً، يحيّونني عن بعد. حاولت أن أخبر البعض بأني لم أعد قادراً على قراءة الأفكار كي أزيل خوفهم مني وأتجنب نبذهم لي، لكن لا فائدة. ازداد شعوري بالإحباط من كل مواهبي، وعدت إلى عزلتي وانطوائي من جديد، إلا مع زملائي في العمل بحكم عملي.

أضحكني يوماً، صديقي "منير" حين جلس يشرح مغامرة غرامية وكان جوارنا اثنان من الأصدقاء. كانت تعبيراته وإيماءاته تُعبّر عن صدقه فيما يقوله لنا. كنا نرى الشهوة في عينيه وهي تعبّران عن إحساس يأخذك إلى عالمه المأسور بالإثارة، وهو يتحدث بزهو:

– حين دخلتُ غرفة نومها، لم أستطع الصبر. خلعتُ ثيابها الخارجية بسرعة. شممتها ورميت إحداها جوار الباب والأخرى جوار السرير، أما ثيابها الداخلية فقد مزقتها. كان وصفه مثيراً حقاً.

كان الصديقان يحسدان منير على مغامرته العاطفية، التي كان يرويها كل مرة بشكل مختلف. والحقيقة التي كانت في مخيلة منير هي: حين كانت تلك الداعرة تخلع ثيابها، كان الخوف مسيطراً عليه، ويرتعد في أعماقه ويتسلل البرد إلى مفاصله.

كثيراً ما كان فضولي يدفعني، لأعرف ما يفكر فيه الناس من حولي، وكأنني أصبحت مخبراً من خلية الحريب (المخبرين) الذين يحصلون على مكافأة حين يكتشفون مثقفاً يسارياً يرونه خطراً على الوطن. كنت أخرج من مكتبي أحياناً، وأجلس على أحد الكراسي الموضوعة على الرصيف، أمام مطعم الشيباني المجاور لمكتبنا. ذات يوم جلس رجل بالقرب مني، طلب كوب شاهي يبدو عليه سمة الزهد، في يده مسبحة طويلة، يتمتم" سبحان الله..." أقترب شحاذ منا يمشي بصعوبة. عرفت أنه لا يعاني من شيء، ناداه الرجل الورع أن يقترب إليه وهو يقول: ما نقص مال من صدقة. ثم راح يتمتم "ما عليك يا أبو هاشم، إلا أن تطهّر مالك... قيمة النحاس للمساكين

وقيمة الذهب لي، والخير يمحي السيئات ..." حاولت التعرّف على الرجل، أفادوني أن لديه محل للذهب (أبو مرزوق للمجوهرات) في حي باب السباح.

حينما كنت أحاول قراءة أفكار المُسنين، كنت اقرأ أفكاراً مشوشه غير مترابطة، أفكار تدعو إلى الشفقة. أما أفكار الأطفال لم تكن أفكاراً، بل أمنيات ورغبات وحيرة في بعض الأحيان.

* ٦ *

عند مغادرتي العمل، كنت أمر في طريقي إلى السوق، لشراء بعض الفواكه والخضار واللحم، فأعرف من يحلف زوراً ومن يغش... كتمت أسرار الناس كثيراً، صارت مع الأيام حملاً ثقيلاً في صدري. على الرغم مما أجده في قراءة الأفكار من آلام، إلا أن الرحلة في النفس البشرية تستحق المعاناة، فهي رحلة داخلية، نرى البشر من دون أقنعة.

وجدت أن النسيان نعمة فكثير من الذين ينسون، تجدهم قليلاً ما يحملون حقداً على أحد، عكس مَن ذاكرتهم قوية. كنت قد نسيت حكاية ناصر، فذكّرني الكلب كوبي، حين وجدته ينتظرني أمام باب منزلي صباحاً وأنا ذاهب إلى عملي، يبصبص بذيله وينبح بصوت منخفض، كمن يريد أن يتحدث بشيء. رافقني قليلاً في الطريق، فإذْا بي أسمع صوته الأجش في عقلي: "لماذا لم تقبض على ناصر... إنه لص؟" وقفت أنظر إليه وحين أبطأت في الرد، أردف:

"إنـه يهـددني بالقتـل. أخبـرْ سـيدي بهـذا الأمـر، لـن يسـتطيع غيـرك أن يخبره بذلك"

فـي اليـوم الثـاني السـاعة الرابعـة عصـراً بعـد قيلـولتي المعتـادة، ذهبـت إلـى ديـوان جـاري مالـك كـوبي، أخـذت مكـاني بجـواره، وهـو يمضـغ القـات فـي ديوانـه مـع مجموعـة مـن أهـل الحـي. كـان هنـاك أحـدهم كبيـرا فـي السـن لا أعرفـه يجلـس أمامـه، وهـو يتنـاول القـات بملعقـة صـغيرة بعـد سـحقه فـي المِـدَق. كنـت أتوقـع أن جـاري سـوف يسـمع لـي ويشـكرني علـى تحـذيري، فهـو يحـب كلبـه كثيـراً ويعتبـره أفضـل مـن حارسـه عبـد الصمد، قلت له:

– قـد يُقتـل كـوبي قريبـاً، أو يـدسّ أحـد لـه سمًّا فـي الأكـل. أبتسـم بسـخرية وقال:

– يـا عبـد الفتـاح، هـذا كلـب حـذر أكثـر منـي ومنـك، لا يأكـل طعامـه إلا من يد أطيب أولادي فقط، وأطلق ضحكة عالية، ثم سألني:

– مَـن أخبـرك بهـذا؟ والـحّ علـيّ أن أخبـره، اقتربـت نحـوه أكثـر وقلـت لـه هامساً:

– كوبي.

– هههههـه... كـوبى.. هههههـه. غُـصَّ الرجـل بـرذاذ القـات مـن الضـحك، كـاد أن يهلـك. ذرفـت عينـاه دمـوع الضـحك، وضـحك بعـده مـن كـان فـي الـديوان جميعـاً، دون أن يعرفـوا لمـاذا يضـحك ذلـك الضـحك الهسـتيري، ولكـنهم حـين عرفـوا ضـحكوا أكثـر كمـا الحشاشـين، إلا الرجـل المُسـن

غضب من سخريتهم، والغريب أنني ضحكتُ معهم والدموع تقطر من قلبي. سخر أحدهم وقال لي:

– كُنا يا عبد الفتاح، نظنّ أنك مسكوناً بالجن، لكنك مسكوناً بالحيوانات أيضاً. هههه.. والطيور أيضاً، هههه.

أجبرت نفسي على البقاء بينهم وأنا أتألم من سخريتهم، وسرتُ أنا أيضا أسخر منهم اتأملهم وهم يمضغون عشب الوهم ليسلون قليلاً، ورحت أتذكر كلمات قالها شاعري المفضّل في هذا المقام، وأنا أمسح بنظراتي كل مَن في الديوان:

يا رِفاقي إنّهُ الوهمُ يُنادي مِثلما صوتِ مُنادٍ في البلاد
هو في الأشداقِ شوقٌ عازفٌ وحنينٌ لاحتراقي في وهِادي
هو في الرأس يُناديني إلى قلبِ أسواقٍ تُنادي لازدرادي
لم يعُدْ غيرَ لِسانٍ في فمَي بعتُ أضراسي إلى سوقِ الكسادِ
فأنا ذو شمعةٍ تخبو سُدىً كُلمّا روحي تجلّتْ في السُّهادِ
أمضغُ الحُزنَ لأسلو في الدُّنى كيف حُزني سلوةٌ فيها بلادي؟!
هو خَمري يتمادى في دمي يحتسي عُمري ويقتاتُ رُقادي

كانت سخريتهم مني لها تأثير كبير عليّ، فأعتزلتهم لفترة كبيرة، أقضي معظم أوقاتي في تأمّلاتي، وكان متنفسي للجلوس مع الناس هو عملي، وكذا مُنتدى السلم الذي كانت نجوى تتمنى أن يختفي من الوجود؛ لأنه يذكرها بأمة اللطيف.

* ٧ *

ذات يوم رنّ جرس الهاتف بعد الظهر، ردت نجوى:

– حاضر... حين سألتها عن المُتحدث؟ قالت:

– صديقتي وكنت أعرف أنها تكذب. قلت متباهياً:

– هذا البيت لا يدخله الكذب وأنا فيه. إنها أمة اللطيف، أليس كذلك؟ جاوبت بغضب:

– نعم، حبيبتك أمة اللطيف، اذهب إليها.

عرفتُ أنها أخفت علىّ خبر اجتماع المنتدى ولم أشعرها بذلك. ذهبتُ لحضور الفعالية الأسبوعية، كانوا يواصلون فعالية الأسبوع السابق، حول حمل السلاح الأبيض وحيازته. كانت الفعالية فيها خلاف ونقاش حاد، أصوات المشاركين تعلو وجدلاً عقيماً...

–الجنبية (الخنجر) زينة

–لكنها قاتلة، قاتلة...

–هي تراث حضاري من عهد الحميريين، كيف نتخلى عن حضارتنا، أنت عدو حضارتنا.

– أنا لست كذلك. لكن وجود السلاح في متناول اليد، يسهّل على المرء استخدامها لأتفه سبب.

– هي للدفاع عن النفس، لابد منها.

– لكنها تستخدم للاعتداء أكثر منها للدفاع على النفس. هل تستطيع حمل السلاح الأبيض في دولة أخرى؟

– لا، لكن هناك أمان، في بلادنا لا يوجد هذا.

– هـا... إذن هـي للأمـن الشخصـي، العيـب هنـا فـي الدولـة، مـن المفروض عليها حماية المواطنين.

بعـد أن هـدأ الحـوار العقـيم الـذي كـان سـيؤدي إلـى شـجار، أصـدرنا بيانـاً بالالتفـات إلـى هـذه الظـاهرة، وطالبنـا الدولـة بإصـدار قـانون اقتنـاء "الجنبيـة" وحيازتهـا للزينـة فقـط، وضـمن لقائنـا تـم تغييـر السـكرتيرة أمـة اللطيـف بسـكرتير؛ لأنهـا سـتزف قريبـاً إلـى عريسـها. عـدت متـأخراً إلـى منزلـي وأنـا أفكـر بخبـر زواج أمـة اللطيـف المُرتقـب، رأيتـه سيسـعد نجـوى لكنهـا لـم تصـدق. حـين أخبرتهـا بـه حـدّثت نفسـها "قـد تكـون أنـت العـريس يـا عبـد الفتـاح" ضـحكتُ مِمّـا فكـرت فيـه، وجـدت أن شـكَّ الزوجـة فـي زوجهـا يبقـى إلـى مـا بعـد المـوت أحيانـاً خوفـاً مـن وريـث، قـد يظهـر للمطالبـة بحقّـه وهنـاك شـك إيجـابي يقـوّي العلاقـة الزوجيـة، فالزوجـة تحـاول أن تبـدو فـي أحسـن صـورتها، وهـو أيضـاً بهـارات الحُـب، لكنـهُ يحرق الفؤاد إن ازدادت بهاراته.

* ٨ *

يقـال إن المصـادفة تلعـب دوراً كبيـراً فـي حيـاة البشـر، وهنـاك مـن يُحسـن اسـتغلالها، والعبـاقرة هـم أكثـر النـاس اسـتغلالاً لهـا، وأظـن أن لـيس هنـاك مصـادفة محضـة تبـرز مـن دون سـبب، ويـرى الـبعض أن الطبيعـة هـي التـي تُحـدثها لتعمـل شـيئاً مـا فـي الوجـود كمقـابلتي بأحـد

أصدقائي القُدامى وأخيه الأبكم مصادفة، لأعبّر بالنيابة عن إحساسه الأبكم وكانت هذه لصالحه.

في إحدى الليالي عوضاً عن الرجوع إلى البيت، دخلت مطعم "فلسطين" في حي التحرير، فهو واحة للالتقاء مع الأصدقاء. فجأة وجدت هناك صديقاً قديماً اسمه عبد الله، لم أره منذ مُدة زمنية طويلة، كان بجانبه أخوه الأبكم. تصافحنا بغبطة وأثناء جلوسي معهما كان أخوه الأبكم يبدو حزيناً، فأحسست بعصا الفضول تقرع رأسي، لمعرفة أسباب حزنه. هذه العادة التي أدمنت عليها، ولم تعد تفارقني. بدأتُ أقرأ أفكار هذا البائس وأحاسيسهُ التي لا يستطيع التعبير عنها وهو يرمق أخاه بنظرات خاطفه: "أنا أعرف يا أخي، لماذا أحضرتني إلى هذا المطعم، أنت تشعر بالذنب نحوي فأنت تعلّمت، أصبحت مهندساً، ساعدك أبي كثيراً وأحبك أكثر مني، أمّا أنا ..."نقر الطاولة بعصبية ثم عاد يفكر والمهندس مشغول بحديثه معي، يضحك أحياناً. لم أكن منتبهاً كثيراً لما كان يقول، كنت التقط الأسئلة وأرد عليها، ثم أعود لأنصت إلى تفكير الأبكم: "لم أشعر بعطف والدي عليّ، كان يراني أنني عبء عليه، لا يفتخر إلا بك أنت المتعلم. كلكم ترونني نكرة. نعم، كان نصيبي من الميراث مثل نصيبك يا عبد الله، ليس منقوصاً، لكن لابد أن يكون نصيبي أكثر من نصيبك، أنفق والدنا الكثير عليك من المال لدراستك. سيكون لك مستقبلاً زاهراً، أما أنا سأزداد فقراً، هذا ليس عدلاً". شعرتُ بحزنه العميق ينتقل إليّ، يقودني إلى توصيل أحاسيسه إلى أخيه. بعد أن أكملنا العشاء سألت عبد الله

عن وفاة والده، فأخبرني أن والده توفى قبل ثلاثة أشهر، وتم توزيع الميراث بيننا، وأقتنع الكل بالقسمة دون الذهاب إلى المحاكم. قلت له:

– يا أخ عبد الله، أود أن أقول رأي في هذه القسمة. ألا ترى أن والدك أنفق الكثير من المال على دراستك؟ وأصبحت مهندساً ولديك وظيفة، راتبك تقريباً ما شاء الله ألفي ريال. أمّا أخوك هذا ليس لديه مصدر عيش غير نصيبه من الميراث، أليس كذلك؟ ولديه عاهة تمنعه من تحقيق مستقبل زاهر. كان يجب لمثل حالة أخيك الأبكم أن يكون له نصيب أكثر من التركة. حدق عبد الله نحوي وقال:

– لكن القسمة حسب الشرع، وكانت عادلة.

– الشريعة نحن اللذين نفسرها، أحياناً كما نشاء نحن كُلٌّ حسب ثقافته، بيئته وزمانه، لهذا تعددت المذاهب. أنا أرى أن الأبكم والأعمى وكل ذي عاهة تحد من مقدرته على العمل، أن يكون نصيبه من التركة أكثر ممن لا يعاني من أي عاهة. وقد لاحظتُ الحزن في عيني أخيك. ردّ بدهشة:

– سبحان الله، كيف عرفت ما يعانيه أخي؟ هو فعلاً منذ أن وزعنا الميراث يبدو حزيناً.

ودّعت صديقي عبد الله وهو يفكّر بأنه سوف ينصف أخاه الأبكم. شكرت الله على موهبتي لإحساسي بما قدمته من فعل الخير.

* ٩ *

في اليوم التالي، عدت من عملي ورهط من الناس على مقربة من باب جاري، يحيطون حول شيئاً ما. ظننت أنهم حول بائع القات ولكن أحدهم قال:

– مات كوبي. أسرعت إليهم وأنا أقول بغضب:

– كنت أعرف أنه سيُقتل، لم يصدقوني.

جلست بالقرب من كوبي وقد بدأ الناس يتفرقون من حوله، رمقني بعينه وهو يزمجر بصوت مؤلم، وعاد يغمض عينيه ثانية. وراح قلبي يستمع بدهشة إلى أحاسيس عالم آخر، غير عالمنا:

" آه، لو كنت ولِدتُ في دولة أجنبية، حيث الرفق بالحيوان هناك جيد. عرفت هذا، حين التقيت يوماً بكلبة أجنبية، أمام بيت أحد الأجانب، لم يسمحوا لي في البقاء معها إلّا وقت قصير، فأنا كلب متشرد وقذر في نظرهم. أحببت تلك الكلبة الجميلة، كم كانت نظيفة، ما زلت رائحتها العطرة في أنفي. أحببتها كثيراً... كنت أود أن أبقى بجوار بابها طول حياتي ولو متُّ جوعاً، لكن واجبي أهم من حياتي. كنت أظن أن ناصر هو من سيقتلني، لكن الذي قتلني بالسم هو ابن سيدي الذي يطعمني بيده، كنت أحبه كثيراً. نعم، إنني عرفت أن فيها شيء خبيث، لكنني أدركت أن الذي يريد أن يقتلني هو من أحببته، نظرت إليه نظرتي الأخيرة، وقلت لنفسي: إذا غُدرت ممن أحببت، فلا معنى للحياة وأكلتها لأموت"

لفض كوبي أنفاسه الأخيرة، فخرجت من عالمه، وأنا أحس بألم شديد في رأسي، أفكر بذهول "هل ما جال في ذهني هي خواطر الكلب المقتول!، أم وسوسة مجنون كما يقولونه عليّ".

ذهبت أقول لحَسن الذي كان يطعمه:

– الطعام الذي قدمته للكلب كان مسموماً.

– غير معقول، ظننتُ أن كوبي مريضاً فقط! إنهم اللصوص.

خرج والد حسن مهرولاً وهو يقول:

– كنت أظنه موتاً طبيعياً، يا الله تأكد لي الآن أن في رأس عبد الفتاح سعيد جَن، لقد أخبرني بأنّ كوبي سوف يُقتل، ولم أصدّقه. وعوضاً أن تكون هذه الحادثة لصالحي كانت ضدي. أصبحوا يخشوني أكثر من السابق.

* ١٠ *

دعاني صاحب الدكان عبد العليم على الغداء يوم الجمعة، كنت الاحظ فيه مودّة نحوي، أكثر من غيره من سكان الحي. وبينما نحن في الطريق، أخبرني أنه يريد أن يعرف سرَّ المودة بين زوجته العدنية الثانية، وزوجته الأولى، بعد أن ظهرت تلك المودة بينهما على السطح فجأة، وأصبحتا صديقتين، تتهامسان سراً، تضحكان معاً، وأحياناً تحضن كلٌّ الأخرى، وقد شاهد ذلك عدة مرات مصادفة، وكُلٌّ تمدح الأخرى، وراح يفكر "هل أقول له، أنني لاحظت كثيراً أنهما يبقيان في غرفة النوم معاً وقتاً طويلاً، وحين أدخل

الغرفة فجأة، ترتبكان وهن على السرير معاً". أمر حيّر عبد العليم هذا التغيير المفاجئ، بعد أن كُن لا يطيقان بعضهما في البداية.

سررتُ بأنه يصدّق موهبتي، لكنه قال لي:

– أنا أعرف يا عبد الفتاح أن معك قرين، كما يقولون وستزيل حيرتي في هذا الأمر حين تجلس معنا.

وصلنا إلى بيته، فرحبت بي زوجته الأولى "قبول" كنت أعرفها في القرية، أمّا زوجته العدنية ضحكت معي ومدت يدها تسلّم عليّ كأنها تعرفني. قالت لي أن اسمها نظيرة، أمها من أصول هندية. جلستُ معهم في الديوان وكأنني أحد من العائلة. حين جلس عبد العليم يمضغ القات، كانت نظيرة في شماله وقبول في يمينه، يقطفان له أوراق القات. حسدته وخاصة على تقبُّل بعضهما لبعض كصديقتين، لكنني بعد أن عرفت سر صداقتهما ذُهلت. ابتسمتْ نظيرة وهي تراني لا أمضغ القات. سألتني متعجبة وقالت بلهجتها العدنية:

– أيش ده، أيش ده، (ما هذا) أنت ما تخزنش (تمضغ القات) ؟! أنتم الشماليون عندكم القات نعمة، كل يوم تخزّنوا، نِحنَا في عدن نُخزّن الخميس والجمعة بَس (فقط) ثم ضحكتْ وقالت:

– أنت شكلك اشتراكي.

خاف عبد العليم من كلامها، وحاول بسرعه أن يضع كفه على فمها، ليسكتها وقال بخوف: يا مَرَة (امرأة) يمكن أن يسمعنا أحد، تريديهم أن يسجنوننا. عبست نظيرة وقالت: أيش هاذي من بلاد! في الجنوب يكرهوا الرجعيين والإمبريالية، وفي الشمال يكرهوا الاشتراكيين.

في منتصف جلسة المقيل بدأ مفعول القات يسري في الجميع. حدّث عبد العليم نفسه وهو يعصر شعيرات شاربه "لقد غفرتُ لك يا نظيرة ليلتك الأولى معي في الفراش؛ لأنكِ ابنة خالي وجعلتي هذا البيت بستاناً تفوح منه العطور والبخور. قبول تغيّرت بفضلك، أصبحت أكثر نظافة، لكنني أحس أنها أصيبت بفتور جنسي، لم أعد أشعر بشبقها للنوم معي كعهدها، ولو أنها لم تعد تخجل من طلبي أن تضعه في فمها، بل أصبحت نهمة على ذلك". وبدلاً أن أقرأ أفكار زوجتيه، عرفت أسراره هو. ولم أخبره أنه أحضر إلى منزله ضُرّةً له، وليس لزوجته قبول. ورحت أقول له:

– وجدتْ زوجتاك التصالح فيما بينهما خيراً من العداء بما أنك تعدل بينهن.

* ١١ *

مرة أخرى لعبت المصادفة دورها معي حين التقيت بأحد أصدقائي القُدامى، لأكتشف خداعاً عقابه الموت في نظر مجتمعنا. ذات يوم اشتقت للتنزه في منتزه الثورة، فذهبتُ مع أسرتي وحملت معي مجلتي المُفضلة "روزال يوسف" وهناك وجدت أحد أصدقائي القدامى/ شائع سالم، بعد عودته من دارسة الهندسة النفطية في الاتحادي السوفيتي، جاء يتنزه مع أسرته، تعانقنا ببهجة بعد طول غياب. كانت صداقتنا في عدن متميزة، حين كنا ندرس معاً في مدرسة با زرعة منطقة "كريتر" وعاد بعد دراسته في الخارج إلى صنعاء، هرباً من السُلطة الاشتراكية في الجنوب. ما زلت أتذكر أحد مؤسسيها ومدرسها الرؤوف، الأستاذ عبد الله عبد الوهاب القدسي،

الـذي كـان يـدفع رسـوم الدراسـة لنـا وعـن الفقـراء مـن أبنـاء الحُجريـة. عرّفنـي بأسـرته: زوجتـي منـال، ابنتـي بـاريس، هـذا ولـي العهـد سـالم. كانـت زوجتـه ذات جمـال مقبـول، فـي عينيهـا خـوصٌ يصـعب علـى المـرء سـبر غوريهمـا، بشـرتها تميـل إلـى السُـمرة، شـفتاها مكتنزتـان وأنـف شـهواني. جلسـنا نتـذكّر فتـرة دراسـتنا معـاً، ومما أتـذكره أنـه كـان يفتخـر أمامنـا بأنـه يتحـدث اللغـة الإنجليزيـة وقلـيلاً مـن الهنديـة. ضـاحكته وسألته:

– هل مازلت تحفظ الهندية مثل أيام زمان؟ ضحك ويداه منفرجتان:

– كيـا بـات هـه ميـرا دوسـت، مَـى هِنـدي زبـان، نهـي بهولجيـا. أي مـاذا حـدث يـا صـديقي، أنـا لـم أنـسَ اللغـة الهنديـة. ثـم ذهـب يغنـي أغنيـة هنديـة للفنانـة المشـهورة لتّـا منجشكر، مازلـت أذكرهـا أنـا أيضـاً لِمَـا كـان يرددهـا لنـا دائمـاً فـي المدرسـة "بيـار كـا درد هـه، ميتـا ميتـا، بيـارا بيـارا، يـه هسـي درد هـه، دودي لوكـا هـه سـهارا..." أي أن الحـب عـذاب لكنـه لذيـذ... وقبـل أن أتركـه دعـاني لحضـور مأدبـة غـداء فـي منزلـه. عرفـتُ مـن تفكيـره، أنـه يريـدني أن أشـاهد منزلـه الجميـل. فهـو مـازال كمـا أعرفـه سابقاً، يحب التباهي.

* ١٢ *

فـي اليـوم الثـاني مـن لقـائي بالمهنـدس شـائع، ذهبـتُ إلـى منزلـه ورأيـت مـا أدهشـني. فـيلا فارهـة، كأنهـا قصـر. بعـد الترحيـب بـي أخبرنـي أنـه يعمـل فـي الخلـيج العربـي. وجدتـه يثرثـر كثيـراً كمـا عهدتـه فـي أيـام

الدراسة، عن نفسه وعن انجازاته. ظل يحدّثني بزهو عن حياته في أوربا، ثم اقترب إلى جواري قائلاً بصوت منخفض:

– هناك يا صديقي، النساء أجمل من نسائنا. سكنتُ في السكن الجامعي وكانت لي صديقة اسمها "مريانا" مثل القمر!. عشت معها أجمل أيام حياتي. ثم اقترب نحوي أكثر يهمس لي:

–تخيّل حتى العجائز كنت أنام معهن، حين أكون مفلساً هههههه وجدتهن كرمات حين تشبع رغبتهن هههه. أظن يا صديقي، لو عِدت إليهن، لوجدت بعض أطفالهن يشبهونني هههههه. النساء في أوربا لهن أصدقاء، والزوج يعرف عن تلك الصداقة لكن هنا في بلادنا، الزوجة وفيّة، تصبر على زوجها وهو في الغُربة، وهذه ميزتهن الوحيدة. ثم أشاد بزوجته وبوفائها الذي لم يعهده في بنات أوربا. قدمّت زوجته سفرتها الشهية: زُربيان، صانونة العَقدَة، عُشَّار... ذهب هو إلى الثلاجة وأحضر قارورة مليئة بالشراب، ظننته في البدء شراب التفاح. صبّ لي كاساً من قارورته وقال:

– اشربْ دواءك يا صديقي، اشربْ. أنت قد كَبرْت مثلي، لن تهضم طعامك من دونه. عرفت أنه خمراً. نظرت إلى طفليه ثم قلت له:

– يا شائع، الحمد لله أنا بصحة جيدة، لا أحتاج إلى دواء للهضم.

– غير معقول! أنت في هذا السن تحاج إلى دواء، اشرب... سترى كيف ستكون بعده.

– أعذرني أنا غير معتاد على ذلك. شرب جرعته الأولي، نفخ في الهواء ثم قال:

– هكذا أنتم ترونه حراماً في الدنيا وحلالاً في الأخرة هههه... أنت مثل زوجتي منال ترفضه، تصلي، تصوم؛ لهذا أنا أحبها كثيراً وأثق بها. التفت نحو زوجته التي انضمّت إلينا بعد جلوسنا وقال لها:

– أليس كذلك يا حبيبتي؟ نظر إلى كأسه مبتهجاً، ثم قال:

– أما أنا فسأسبقكم إلى شراب الجنة هههه. كانت زوجته تبتسم، يبدو عليها الخجل. ترمقني بخجل، وراحت تقول لشائع:

– لقد أكثرت من جرعة الدواء يا شائع، يكفي اليوم. لم يعرها إي اهتمام فبدأت تنظر إليه بغضب، وبدأ فضولي يشدّني إلى معرفة ما يدور في دهاليز ذهنها، وهي تحدث نفسها، يا ليت فضولي لم يدس أنفه في هذا الأمر. يا للهول ما قرأت "سكير، مغرور... هل أخبرت صديقك، عن مغامراتك الغرامية في الغُربة، عن صديقاتك؟ اللواتي كُنت تخبرني عنهن. لا أدري هل لتثير شهوتي أم لتزهو بفحولتك...! تزعم أنك تُبتَ عن عُهرك، كانت فترة طيش وحرمان. لم تسمح لي أن أكمل دارستي الجامعية خوفاً أن أنظر إلى غيرك في غيابك. لكن ها هو "سلطان" ابن الجيران، ينام مكانك في غيابك، لا أدري من أغوى الآخر أنا أم هو؟ هو جميل ينضح شباباً، كأسه مترعة بالحب. نعم، يصغرني بخمس سنوات. لكن الفتى يرى الأنثى في الأربعين من العمر في عمر الزهور. هل تظن يا شائع أن سالم هو ابنك؟ الحمد لله إنه يشبهني. أنني أكرهك في الفراش، لا يهمك إلا متعتك أنت

وحدك، لكن الفتى ابن الجيران أطلب منه ما تخفيه رغبتي عنك. وحين تجدني ممتعة لك في الفراش، أكون كذلك حينها أحلم بمن أريده، كما أنت تحلم بعشيقاتك، لذا نجد أننا نحن الإثنين رائعين".

ذُهِلتُ مما عرفتُه من زوجة شائع، فلم أستطع أن أمضغ طعامي. كان شائع يتحدث وهو يظن أنني أستمع إليه وهو يثرثر... وقد بدأت الخمر تذهب بعقله. كنت أريد أن أعرف زوجته أكثر، لكنها قامت تساعده على الجلوس فوق كنبة الصالة، وهو يقول لي ببطء:

– الآن عرفتْ لماذا أحب زززوجتي ككثير، أنها تساعدني ولا تتذمر وتدعو لي في صلاتها...آه، كم أحب إخلاصك يا ممنال.

ودّعتهُ وأنا أنظر إلى وجه آخر لزوجته منال، وأفكر في عالمنا المليء بالخداع والمكر.

هكذا كلما كنتُ أغوص في النفس البشرية، لا تخرج روحي من بحرها، إلا وقد علِقتْ بما يجرحها، ذلك البحر الذي وجدته دون قرار، حيث هناك تختبئ الوحوش النائمة، والطيور الجارحة، والحمام الساجعة، والحملان الوديعة...

١٣

عدت إلى منزلي، وجدت قيساً قد ترك القرية وجاء إلى صنعاء، يبحث عن عمل كعادته، وحين يملُّ يغادر إلى القرية مرة أخرى. جاء إلى حيّنا حافي القدمين، أعطيته خمسة ريالات، لم يأخذها إلا بعد إلحاح مني. وجدته وفيّاً عكس ما عرفته من منال زوجة صديقي

المهندس شائع. هكذا وجدت الحياة عُملة بوجهين، أحدهما فيها قبح والآخر جمال، ذلك الجمال الذي يجعلنا ننسى قبحها سريعاً.

رأيت قيساً يحرك شفتيه يتمتم. جلست بجواره أنصت لما يُحدث به نفسه: "آه، يا صفية، يظنون أنهم سلبوك مني، وهُم لا يدرون إنما أخذوك جسداً، فروحك معي وحدي بين ضلوعي. إنني أصبحتُ ذا روحين متعانقين للأبد".

آلمني تعلّق قيس بعروة حبٍّ، تتدلّى منذُ خمسين عاماً ولم تبلَ. حينها أنساني وفاءه لمحبوبته مكر منال زوجة صديقي شائع. قاطعت استرساله ورحت أقول له:

– أنا أعرف بماذا تفكّر يا قيس، لكنه لم يلتفت إليّ أو يتحدث. قلت له: أنت تفكّر في محبوبتك صفيّه. عندئذ ألتفت إليّ مُندهشاً! وأنا أحدّثه بماذا كان يفكّر فيه. عندما أردتُ أن أمشي من جواره، سألني:

– كيف عرفت بما كنتُ أفكر فيه؟! كانت هذه أول مرّة فيها يلفظ قيس بكلمة منذ خمسين عاماً. ابتهجت كثيراً لخروجه من نفق صمته الطويل. قلت له:

–يا قيس لكل شيء نهاية، أما آن لحُزنك أن ينتهي وقد أصبحت شيخاً! حتى الحب له نهاية. التفت نحوي:

– لا، إلا الحب.

سمع شخص كان على مقربة مِنا وهتف:

– نطق قيس، نطق قيس ... أنطقهُ عبد الفتاح. تجمّع الناس حولنا.

– كيف استطعت يا عبد الفتاح أن تفعل ما لم يفعله الأطباء والسيّد الشُعبي، كيف فهمته؟ حدّث البعض أنفسهم:

" ما يفهم المجنون إلا المجنون "

" الجنون أنواع، لا يظهر على بعضهم "

" معه جن يساعدوه ". آلمتني ردودهم هذه فذهبت منكسراً، كنت متوقّع منهم عكس ذلك.

* ١٤ *

كان ذهابي إلى المنتدى أسبوعياً، يخرجني من عزلتي. ذهبت إليه عصراً كعادتي، حضر أحد مسؤولي الدولة ضيفاً على المنتدى وبعض الصحفيين...تحدث رئيس المنتدى حول تنشئة الأجيال التنشئة السليمة، كان عنوان المحاضرة (الشباب ومستقبل الأمة). كان الحاضرون منصتين له تماماً، فمحاضرته قيمة، لكن ما أغضبني هو أن هناك من كذّبه وشتمه في نفسه "يريد أن يتفلسف علينا هذا العلماني، والله إنه مُخبر مع الأمن الوطني، لا يستطيع غيره أن يقول مثل هذا الكلام..." ، "تفكير مُلحدين، لا يعرف ما في الأرحام إلا الله " حيث قال: يمكن للجنين أن يسمع وهو في بطن أمه، ويمكن أن نقرأ له وهو في الرحم، ليتعلم حُسن الإصغاء بعد الولادة. لكن القِلّة ممن قرأت تفكيره، كان معجباً بتلك المعلومات الجديدة. حين أنهى رئيس المنتدى محاضرته، أنتهز أحد الصحفيين حضور المسؤول، فتقدم نحوه بعد أن حيّاه، وأخذ يسأله عن أمور عديدة. كانت إجابات

المسؤول مثيرة للدهشة والاستغراب، لرجل مثلي يقرأ الأفكار. كنت ابتسم من اجابته؛ حيث كان يبدي عكس ما يبطن. لقد تدرب هؤلاء على الكذب كثيراً، حتى أن تعبيراتهم الجسدية، أو ما نسميها بلغة الجسد ليس لها أي تعبيرات عندهم.

ازداد الكبت في أعماقي وكاد كأسي أن ينضح بما فيه، لولا أنني جعلت عِروة الصبر تُكبّل لساني، إذ كيف أكاشف الناس بما يدور في عقولهم؟ كيف ألوم شخصاً بما لم يتفوّه به! والحقيقة أنني أكون سعيداً، حين أقرأ أفكار المخادعين، الغشّاشين وأمثالهم، لأنقذ نفسي منهم. مثل طبيب حين أُسعفت إلى عيادته الخاصة، من ألم أشكو منه في أسفل بطني. قال بقلق:

– أنت بحاجه إلى عملية جراحية سريعاً، قبل أن تنفجر فيك الزائدة الدودية ، وأخذني إلى مشفى خاص.

حين كُنت على طاولة العملية قبل التخدير، قمتُ سريعاً منها وأنا أقول له:

– صحيح إن الألم شديد، لكن سببه انتفاخ في الأمعاء وبحاجة إلى مرطبات وحقنة شرجية، وليس سببه التهاب الزائدة. أفتر بابتسامة ماكرة:

– من قال لك هذا؟

– لم أرد عليه. فكّر الطبيب "من أخبر هذا الخروف بالتشخيص الحقيقي؟"

– أنا لست خروفاً يا "مَلاك اللحمة"، عفواً يا ملاك الرحمة.

بُهِت الطبيب ومضى بعيداً، وهو يقول:

– أعوذ بالله، لن أعمل عملية لشيطان...!

ومن فوائد موهبتي أيضاً أنني أنقذت صديقي عبد المولى، حين جاء دوره ليوقّع على اتفاق شراكة وهو على ثقة من أمره. وايضاً حذّرت زملائي في العمل من مُخبر للأمن الوطني....

* ١٥ *

ذات يوم جلست أشرب شاهي في مطعم الشيباني المجاور لمكتبنا، وجدت هناك رجلاً في الثلاثين من العمر، يلبس قميص و"فوطة" غير نظيف، يبدو عليه اليأس، ينفث سيجارته، شارد الذهن يجلس على الرصيف. جلست أمامه لمحتُ حُزنه العميق. رن جرس الفضول في رأسي لأعرف حزنه وهو يقول لنفسه: "هذه المرة سأنتحر، لن أجبن كالمرات السابقة، سأضع حداً لوجودي. لا معنى له ما عدت أستمتع بحياتي إلا عند مضغ القات، وهذه السيجارة اللعينة ـ رمى بها بعيداً ـ حتى زوجتي تنبذني لعدم فائدتي في الفراش، وعلاج الطبيب يزيدني خمولاً، لا فائدة منه. لعنة الله عليه، يأخذ فلوس مقابل لا شيء، علاجه يصيبني بالخمول لم أعد قادر على العمل. عشر سنين وأنا أعاني مما أنا فيه، لم أعد أعرف معنى السعادة، هذه الدنيا اللعينة لا أريدها، الكثير يفرحون ويمرحون وأنا في حزن دائم ووحيد، لا أحد يشاركني آلامي وهمومي".

دس الرجل يده اليسرى في جيبه وهو يقطب حاجبيه وتمتم "إنه مازال موجوداً يا مسرور يرافقني حيث أكون. حينما أقرر سيخلّصني من الوجود". تبسم بوجه عابس، ودفع سيجارة أخرى إلى شفتيه. آلمني تفكير هذا البائس الكاره للحياة. اقتربت منه ورحت أسأله:

– عفواً يا أخي، يبدو أن لديك مشكلة، يمكن أن أساعدك بشيء ما؟

التفت نحوي وقال:

– كيف عرفت أن لديّ مشكلة، هل تعرفني؟

– لقد قرأت هذا في عينيك. ابتسم ساخراً وهو يقاطع يديه على صدره، كمن يتحدى وهو يفكر "سأرى هذا الفضولي، ماذا عرف عني" وقال:

– قُل ماذا قرأت في عيني؟

أخبرته بكلام كنت أنا مندهشاً مما قلته، ومن أين أتتني تلك الأفكار!:

– لقد كُنتَ طبيب نفسك يا مسرور، تحملت معاناتك طوال عشر سنين. ألتفت نحوي فجأة حين أخبرته عن اسمه والدهشة تملأ عينيه، وراح يفكر "هل هذا الرجل أمن وطني"! ثم أضفتُ:

– قاومت غرور وغطرسة النفس وتدمير الذات، لكنك تجعل المتعة الجنسية هي التي تحسسك بالوجود فقط في هذا العالم، فالجري خلفها هي لمن ليس لديه مُتع أخرى أسمى منها، ولتجعل إحساسك بالوجود والسعادة، هو تمتعك بالنظر في جمال الكون البديع من حولك. من الناس يرى سعادته ومتعته في إسعاد الآخرين، فيحس بالسعادة

وعظمة وجوده، والسعادة المُثلى تنبع من الداخل وقليلاً ما تأتي من الخارج، ونادراً ما تنضب، وهي كالزهر التي لابد عليك أن تروي جذورها لتتفتح وتتنسم عطرها، نحن الذين نصنع السعادة والتعاسة بأنفسنا، فالجنة النار هي داخلنا نحن، والسعادة الداخلية تجعلك ترى منابع أخرى للسعادة، فترى الجمال في كل مكان، حتى في القبح نفسه.

كان الرجل يسمعني وهو يحدث نفسه "غير معقول! كيف عرف هذا الرجل معاناتي، ولو أنني لم أفهم بعض كلامه. أترى من يكون؟ يبدو ليس من رجال الأمن، إنه يضمد الجراح ولا يفتحها". ابتسمت ورحت أضيف: الحياة يا مسرور هي سلم نرتقي عليه، نستمتع بها كلما صعدنا درجة فيها، حيث نرى العالم بوضوح أكثر، وكلما صعدنا درجة أخرى، استمتعنا برؤيته أكثر؛ لأننا نرى الوجود أفضل وأوضح. وهكذا نظل نصعد ونصعد للحصول على المتعة الحقيقية، وكلما صعدنا أكثر تختلف أحاسيسنا بالمتعة. عندما كنا صِغاراً استمتعنا بالغذاء وحنان الأم، وهذه صفة مشتركة مع الحيوان، وعندما كبرنا قليلاً، استمتعنا برسم الأهداف والطموح ومحاولة تحقيق ذلك، ثم استمتعنا بأساس البقاء، وهو عش الزوجية ثم برؤية أولادنا الصغار يكبرون حولنا، وبعد ذلك ما حققناه من طموحاتنا، ثم نستمتع بما حققوه أولادنا، وأخيراً نستمتع بأحفادنا، الذين نجدهم يقبعون في آخر سلم حياتنا.

كان الرجل يبسط كفّه الأيمن على خدّه، وهو ينظر نحو الأرض يستمع إليّ. ثم أضفت: وما حدث لك يا مسرور، أنك وقفت في أحد درجات سلم حياتك، والوقوف هو الجمود والركود. أما الموت هو الوقوف عن الحركة ألا ترى هذا؟، كانت الحياة تتحرك من حولك وتتغير، وأنت واقف في مكانك لا تدرك التغيير الذي هو سُنة من سنن الكون. كان ينصت بكل جوارحه، وأنا أمرر بلسمي على جرحه.

سألني وهو في حيرة من أمري:

– كيف عرفتْ معاناتي؟! أنت أفضل من طبيب نفساني عرفته، الذي لم يسطع أن يلمس جرحي مثلك. سأترك علاج الطبيب الذي أرهقني منذ عشرة سنوات، لن أعود إليه، زادني تعاسة. شكراً لك يا عم...، وأراد معرفة مكاني. قلت له: ستجدني هنا كثيراً. قام يمشي بخفة وغاب عن نظري.

* ١٦ *

ذات يوم استدعى مدير المكتب جميع موظفي المكتب وكان غاضباً. تحدث عن أموال فُقدت وأنّ هناك تلاعباً في أموال مكتب النقل، وأشار إلى موظف اسمه عبد الكريم رزق، اختلس عشرة آلاف ريال. صرخ وهو يشير إلى عنقه:

– أموال الدولة أمانة في أعناقنا ـ ضرب الطاولة بقبضته ـ آه، يا عبد الكريم، كيف تعمل هذا العمل الشنيع، كيف؟ لو تراخينا عن رقابة

أمـوال الدولـة سـيعم الفسـاد. صـمت قلـيلاً وهـو يهمـس لنفسـه، يبتسـم بسُخرية "يريد هذا الغبي، أن يفعل مثل أسياده...غبي".

خرجـتُ مسـتغرباً ممـا حـدّث بـه المـدير نفسـه، وقـد كـان الجميـع يـراه أنـزه مـدير تـولّى إدارة المكتـب، يُضـرب بـه المثـل فـي النزاهـة، وبحرصـه علـى أمـوال العامـة. شـعرت بصـداع لـيس فـي رأسـي فقـط بـل فـي ضـميري أيضـاً؛ لمعرفتـي بحقيقـة المـدير، وأنـا لسـت قـادراً علـى تقـديم دليـل مـادي عليـه. كتمـتُ السـر فـي صـندوق أسـراري، خوفـاً مـن جواسيسـه بـين المـوظفين، أو أن يشـي بـي فـي جهـاز الأمـن الـوطني، فكثيـراً مـن المـدراء هـم مـن جهـاز الأمـن. تمنيـت لـو أن هـذا الجهـاز يكـون لمراقبـة الفاسـدين ولـيس الـوطنيين، الـذين يـرونهم أعـداء الـوطن. لـم أعـد إلـى مكتبـي، بقيـت فـي صـالة المسـافرين المتواضـعة، أتفـرس فـي أوجـه المسـافرين، المنتظـرين رحلاتهـم إلـى كُـل مـن المُـدن: ذمـار، إب، تعـز، الحديـدة... لفـت انتبـاهي رجـل يمنـي يهـودي، وأُسـرة تتكـون مـن أبٍ ذو لحيـة طويلـة مشـوبة بـالحُمرة فـي السـبعين مـن عمـره، وأم وابنتـين، الأولـى فـي السـابعة عشـر مـن العُمـر تقريبـاً والأخـرى أكبـر منهـا. كـان يجلـس أمـامهم شـاب "خنفـوس"، يتـدلى شـعره إلـى كتفيـه، وسـيم، مفتـول العضـلات، يلـبس بنطلـون شارلسـتون، وقميصـاً ملتصـقاً بجسـده، أزرار صـدره مفتوحـة، وحـذاء ذات كعـب عـالي ــ موضـة العصر ــ كـان عاكفـاً علـى قـراءة روايـة (الأرض الطيبـة). كانـت الأم ترشـق ذلـك الشـاب بـالنظرات بـين الحـين والحـين. اسـتغربت مـن تفكيرهـا فـي شـاب فـي سـن بناتهـا، وهـي تفكّـر فيـه "آه، مـاذا لـو كـان لـي زوج

مثله في شبابه، ليس مثل والد ابنتي خديجة، يتفاخر بلحيته لا أعرف كيف اقبّله منذ أن تزوجته. ثم سمعتها تقول بصوت مرتفع قليلاً:

– أعوذ بالله من الشيطان... "

وجدت أن المرأة قد تعيش مع زوجها دون حُب طوال حياتها، لكنها تحترم العلاقة الزوجية، وكأنهما في عقد اجتماعي للتعايش معاً. أمّا زوجها كان يجلس بجوار رجل، يتحدثان معاً. قال له وهو ينظر إلى الشاب باحتقار:

– من أين أتت هذه الخنفسة إلينا والتشبُّه بالنسوان، هذا التقليد الغربي الأعمى، أفسدوا شبابنا. قال الرجل له:

– لكن أولادنا ما يقدروا، شندعسهم. هم أبناء تعز بَس (فقط)، لكن ما نعمل، لو منعناهم عاد يقولوا إننا نضطهدهم، دعهم في غيّهم أحسن.

كان الرجل المُلتحي يمسد لحيته، واليهودي يرشقه بنظراته مرسوماً على وجهه ابتسامة غامضة. يقول لنفسه "قرُبت حِسبتكم (نهاية تسلُطكم) ... تتباهون بنفوذكم، ولا تدرون أن سلطتكم لن تتعدى المسجد قريباً، فقد مر على دين محمد ألف وأربعمائة عام". حيّرني تفكير اليهودي! ماذا يقصد بكلامه؟ هل تضعف سُلطة رجال الأديان بعد مرور ألف وخمسمائة سنة من نشوئها، كما حدث لرجال الدين اليهودي والمسيحي، كلٌّ منهما بدأت تضعف سلطته بعد مرور ألف وخمسمائة سنة تقريباً من عهد نشوء كل دين منهما.

ما قرأته في البنت الصغرى كان منطقياً. حين نظرتُ إليها وهي تحدّق في الشاب، تهمس لنفسها "من صاحبة الحظ السعيد التي ستفوز بك...؟ لو تكون لي. لماذا نحن النساء لا نختار أزواجنا بأنفسنا؟ كما الرجال يختارون زوجاتهم، هل خلقنا لمتعة الرجال فقط، ولماذا يُنسب اسم الولد لأبيه وليس لأمه التي هي تهب له الحياة فيها بقدرة الله ثم ترضعه زمناً ...! كيف يشتري حُسني وشبابي رجل بسبعمئة ريال، أكون مجبرة على العيش معه، وأنا لا أحبه؟ وراحت تتغزل في عينيه، شفتيه".

أدهشتني هذه الفتاة بتفكيرها، وجدتها ثائرة على تقاليد المجتمع وعاداته. كُنت أرى أختها الكبرى عكسها تماماً، تلكزها بمرفقها وهي تراها تحدّق في الشاب، كأنها تقرأ أفكارها. تحدث نفسها هي أيضاً، وهي ترمق ذلك الشاب بين الحين والآخر: "ذاك قمر يا خديجة، أنتِ تطوفين كفراشة حوله، ستحترقين فيه حُبّا. أتودين أن تكوني فراشة تفنى في حبٍّ يحرقها. نحن معشر النساء نؤتى ولا نأتي. نحن متعتهم، فاكهتهم المتنوعة، قهرتنا سطوة الرجال بقوتهم المتفوقة علينا، ذاك قدر الله علينا. ستأكلك الغيرة يا أختي، إذا أصبح هذا زوجك يوماً ما، أما أنا أريد زوجاً لا يفتنُ النساء، رحيقه لي وحدي، لا يهمني جماله بقدر فحولته، يشبع رغبتي في الفراش، يلبّي طلباتي".

ابتسمتُ لبراءة البنت الصغرى، وجدت أن للمرأة رغبات، تدفنها في مدفن الأسرار، لتحيا بسلام في المجتمع.

* ١٧ *

عدت إلى منزلي أفكر في النفس البشرية، التي هي ساحة لمعارك الخير والشر، المنتصر هو الذي يرفع رايته علماً، يبرزه إلى العالم الخارجي، وأحياناً يكون هناك هُدنة بينهما. حين وصلت إلى منزلي، وجدت نجوى تشكو من ألم في بطنها، فأخذتها في الساعة الرابعة مساء، إلى مستشفى الثورة العام إلى طبيبة نساء. جلست تنتظر دورها في الدخول مع عدة نساء أخريات. رأيت فتاة في العشرين من عمرها تجلس قريبة منها، لفت انتباهي قلقها وتوترها، مع ندم يبدو عليها. قرأت أفكارها المُخزيةُ وهي تهمس لنفسها: "كيف أبدأ حديثي مع الطبيبة، هل ستساعدني؟ سيكون عرسي بعد أسبوع، كيف سأتخلّص من هذه الفضيحة... وهذا الكلب الخنفوس رامي، تخلّى عني. أقسم أنه سوف يتزوجني بعد أن فقدت عُذريتي معه، جبان، حقير...يستحق القتل، أنا التي مكنّتُ هذا الكلب منّي. أترى ماذا أعمل؟ فضيحتك يا جميلة...إذا لم تساعدني الطبيبة في هذه المصيبة. سأعطيها كم ما تريد من المال، لابد من دم يسيل على منديل ليلة العُرس، سيطلبه الأهل مني، ويكون ذكرى ليلة عرسنا ودليل شرفي، هذا إذا لم تدخل المُزيّنة[١٧] تشاهد بنفسها الفراش. أتُرى كيف أنقذ شرف العائلة ؟ ".

[17] امرأة من الطبقة الدنيا

خرجت نجوى من عند الطبيبة تحمل في يده ورقة لعمل بعض الفحوصات، وذهبنا إلى المختبر. في اليوم الثاني عدنا إلى الطبيبة لمعرفة النتيجة. دخلت نجوى العيادة وذهبت أنا أتنقل بين العيادات، وكانت صالة العيادات الخارجية مزدحمة. جلست أستريح أمام عيادة طبيب المسالك البولية وكان أمامي شاب ينتظر دوره في الدخول إلى الطبيب، يبدو عليه الهم، يقضم اظفاره، يقلّب كفيه، يقطب حاجبيه، يزم شفتيه أحياناً. رحت أقرأ أفكاره؛ لأعرف سبب همه وغمه الذي أضحكني وأحزنني في النهاية، وهو يقول لنفسه: "يخونني هذا الماكر عندما أقترب منها فقط، ويذهب في سُبات عميق... ما أمرُّ طعم الخيانة. غدار، خائن. أدلّكه كثيراً حين أكون معها في الفراش، أناديه: قُم يا خائن، والعق من اللذة، ستحبها كثيرة، إنه أفضل من العادة السرية، هيا قم أرجوك، لا تخونني عند حاجتي إليك. لكن لا حياة لمن تنادي". صمت قليلاً ثم راح يضيف: "كم غصت في الفراش لأواري وجهي عنها، وأنام على وسادة الخزي، أشعر أن رجولتي تنهار أمام عروسي، كيف ستراني مستقبلاً؟ سأخبر الطبيب عن كل شيء عسى يجد لي حلًا. سأسأله: لماذا عندما أقترب منها تصيبني رعشة وتغزوني البرودة...؟"

اقتربت إلى جواره وأنا متردداً، سلّمت عليه. قلت:

– أشعر أن لديك مشكلة يا فتى، هل تقبل مساعدتي. نظر نحو الأرض وقال: شكراً يا عم، ليس لدي مشكلة إنها حرقة في البول، سأدخل إلى الطبيب الآن. ابتسمت له بتودد وقلت:

– أنت لست بحاجة إلى طبيب مسالك بولية، بل إلى طبيب آخر. يبدو أنك عريس، تزوجت قريباً، أليس كذلك؟ نظر إليّ باستغراب، سألني:

– هل تعرفني يا عم؟

– لا، هذه أول مرة أراك فيها يا ولدي، ليس أنت أول من يفشل في اللقاء الأول مع عروسه... كان ينصت إليّ وهو يواري دهشته عني وقد أحمر وجهه خجلاً. رحت أضيف: لقد عرفتُ أناساً عجزوا عن ذلك شهوراً. قال لنفسه وقد شعر بالخوف: "يا الله ... ممكن أن تكون عروسي أفشت السر. البنت طيبة، خجولة، لكن لا يهم يمكن هذا الرجل أرسله الله ليساعدني، لا يهمني كيف عرف". سألني وما الحل لديك يا عمي؟ أخذته إلى منتزه المستشفى المتواضع وجلسنا معاً وقدمت له نصائح يتبعها مع عروسه، وأخبرته أن أوهن شيء في الأنثى، هي بكارتها، وأن الخوف من الفشل يودي إلى الفشل، ثم وضعت يدي على كتفه وقلت: ضع النجاح نصب عينيك، تنجح. ذهب الشاب وهو يشكرني بعد أن سأل عن مقر عملي.

عدت إلى نجوى وجدتها قد خرجت من عند الطبيبة، بيدها وصفة الأدوية. سألتها عن مرضها، ضحكت وهي تقول لي:

– كنت أخفي عنك خبراً؛ حتى أتأكد منه. سألتها بغرور:

–ما هو؟

– كنت أظن أنني حامل لتأخر العادة عن ميعادها. ضحكتْ مرة أخرى، وقالت لي بمكر الأنثى:

– يا حبيبي، أردت أن أعلّمك درساً: إذا الزوجة أرادت أن تخفي شيئاً عن زوجها، تستطيع أن تخفيه ولو في رأسه عشرين قرين. قلتُ في نفسي "يتحول ضُعف المرأة أحياناً إلى قوة في الدهاء والمكر، تهزم فيها أشد الرجال"

* ١٨ *

ذات يوم بعد خروجي من العمل، أخذتني قدماي إلى بائعة اللحوح (خبز رقيق) في سوق باب اليمن لأشتري منها لحوحاً، على الرغم من أن لحوح نجوى أفضل من اللحوح الصنعائي، لكن ما كان يعجبني فيها هو عيونها الخُضر الجميلة. كان بجوارها فتاة جميلة، في الحادية عشر من عمرها تقريباً، وما زالت تلبس "كَوْبَع" الأطفال على رأسها، اعتقدت أنها أمّها. لفت انتباهي رجُل في الستين من العمر، شاذ في تفكيره، عرفت أيضاً أنه لوطيّاً، يمسح شواربه الطويلة، وهو يرشق الفتاة خِلسة، يتمتم في نفسه: "البنت هذه وردة... " بلع ريقه، ثم أغمض عينيه وذهب في نشوة، ظننت أنه لن يصحو منها. لكنني وجدت هذ الرجل في تفكيره أرحم من رجل في الثلاثين من العمر، كان يشتري اللحوح من تلك المرأة، يلبس ثوباً عليه جاكت غير نظيف، نظراته مخيفة، يتلمظ شفتيه، يُحدّق في الفتاة، وهو يهمس لنفسه: "هذا الخَشَف طريدتي، أين مسكنها؟ صيدها سهل. سأعرف

اليوم مسكنها، لن تفلت هذه الطريدة مني". أفزعني تفكير هذا المجرم، وما يضمره من شر نحو الفتاة، فكرتُ أن أحذّر بائعة اللوح. اقتربتُ منها لأشتري "لحوح". قلت:

– لديك ابنة جميلة، ما شاء الله، جاوبتني:

– لا، ليست ابنتي، هي ابنة زوجي. رفعتُ صوتي ليسمعني الملعون:

– لا تدعي هذه الفتاة تمشي وحيدة في حيّكم، أولاد الحرام كُثر. قالت وهي تمد باللحوح لشخص آخر:

– هي ابنتي وفي عيني. حدّث الرجل نفسه وهو يراقبنا عن قُرب:

"ما أدرى هذا الفضولي، بما افكّر فيه سيفشل خطتي" ثم أضفتُ:

– هناك كلاب مسعورة حولنا، خُذي حذرك منهم. فحدّث الرجل نفسه مرة ثانية.

" ما أدرى هذا الكلب بما في رأسي، زنوة ابن زنوة ... لن تفلت هذه البنت مني مهما عمل هذا المتطفّل ".

وبينما كنتُ أحدث نفسي عن رغبة هذا السادي، تذكّرت مصادفة ذلك الشاب، الذي كان بالأمس يشكو من عجزه الجنسي إذ به فجأة يقف أمامي مبتهجاً، يقول:

– سألت عنك يا عم في المكتب، وأخبروني أنك ذهبت لشراء اللحوح. لم أستطع الانتظار هناك فجئت أشكرك على نصيحتك لي، لقد كُنت مُحقاً. ابتهجتُ أنا أيضاً لسروره، سألته:

– كيف كانت ليلته مع عروسه؟ وسار يحدثني ببهجة وهو يصف ليلته، ونحن نعود إلى مقر عملي:

– حين ذهبت أنا وعروسي إلى السرير، استلقيت على ظهري بجوارها وأنا اقرأ صحيفة كما نصحتني، دون أن أفكر بعمل أي شيء معها، وبعد نصف ساعة من القراءة، قام ديكي يتبختر. تركته ينتظر، قلت له: أنتظر جاء دوري لأنتقم منك يا غدار، هههههه. شعرتْ هي بذلك حين وخزتها به في ظهرها. التفتت نحوي، كنت أظنها ستبتسم لكن على العكس من ذلك، رأيت الخوف والحياء معاً في عينيها، وأظهرت تمنعها وكلما تمنّعت ازداد ديكي غروراً. قمت صباحاً أطلق خمس رصاصات في الهواء، وأرسلت منديل ليلة العرس مخضّباً بالدم إلى أهلها؛ فقد انتظروه طويلاً.

*** ١٩ ***

بعد أسبوعين من لقائي بفتاة بائعة اللحوح، قرأت في الصحيفة:

إنّ فتاة قُتلت في الثاني عشر من العمر بعد اغتصاب وحشي، وجدوها الرعاة على مقربة من مرعى ظَهر حميّر، حيث كانت ترعي. حين رأيت صورتها، بكيت، شتمت تلك المرأة، مَن قالت لي إن الفتاة ابنة زوجها، لماذا لم تأخذ بتحذيري...! كنت أحسّ أنه سوف يعملها ذلك المسعور، ليطفئ ناره القذرة... لابد أن أذهب إلى قسم الشرطة كي أخلّص ضميري. أخبرتُ نجوى أنني سأذهب إلى قسم الشرطة، حاولت أن تمنعني لكنني كنت مُصراً على الذهاب. أخذت الصحيفة

وذهبت إلى قسم شرطة جمال جميل. وصلتُ القسم، رأيت شرطياً يقبض على رجلين، يبدو أنهما قد تشاجرا في مكان ما، أحدهم كان متوتراً ينظر إلى خصمه بنظرات مخيفة وهو يقول لنفسه: "هكذا يا سعد المسعودي تهيننني أمام الجميع –تحسّس خنجره –ستموت على يدي، سأغرسها في قلبك، قذر، حقير... سيتفرق دمك يا مسعودي بين قبيلتنا والديّة جاهزة، ... الله يُخلّي الغرّامة، وإلا هَرْبه إلى عند الشيخ عِرجاش، أكون مرافقاً له". لعنتُ عُرف الغرّامة[18] التي تجده القبائل شهامة ونخوة، وهو يَشجُّع المجرم على ارتكاب جريمته، وكذلك المشايخ الذين يحمون المجرمين. كنتُ أود أن أحذّر الرجل الآخر، لكنني وجدت نفسي أقف أمام الضابط، ولفت انتباهي رجلان يقفان أمامه، الأول متهم برشوة أحد الموظفين، بعد أن بلّغ الموظف هو نفسه عن الراشي، يبدو عليه الارتباك والخوف، والثاني يبتسم لا يبدو عليه الخوف. بدأ الضابط يُحقق مع الراشي. أثناء التحقيق كنت أنظر إلى الرجل الثاني، وهو منهمك في التفكير "مِن أين لهؤلاء الأغبياء دليل عليّ والله ما يقدروا يثبتوا شيئاً ضدي، ما أحد شاهدني حين قتلته...". لم أستطع ابتلاع صمتي شعرتُ لابد أن أقول شيئاً ما، قلتُ بصوت مرتفع:

– الله عالم بكل شيء... حسبنا الله ونعم الوكيل. فاجأني المُحقق بقوله:

---

[18] المشاركة في الدية

– اصمتْ يا رجل حتى يأتي دورك وتحدث بما شئت. قلت لنفسي "جئت أبلّغ عن جريمة، فإذا بي أمام جريمة أخرى، لابد أن أبلّغ عن الجريمتين معاً والقاتل هذه المرة أمامي موجود في القسم". انتظرت وأنا أسأل نفسي "متى سيأتي دوري، حتى أخلّص ضميري بالإدلاء بما أعرفه عن هؤلاء المجرمين القتلة؟".

جلس بجانبي رجل يتوسّل إلى محاميه، أن يوقف نقل قضيته إلى النيابة، حتى لا تطول القضية. أخبره المحامي ألا يخاف قط، وبأنه بارع في حل مثل هذه القضايا، وأكد عليه بأن قضيته رابحة وألا يقلق... ضحكتُ على الرغم من حزني حين قرأت ما فكر فيه مساعد المحامي، وهو ينظر إلى الرجل "لا تقلق يا رجل، أنت بين يدي حالب الأثوار وقضيتك خاسرة..."

أنتهى الضابط من تحقيقاته مع الراشي، تشجعت وتقدمت إليه:

– يا سيدي، أنا أعرف هذه الفتاة وأعرف قاتلها وأشرت إلى الصحيفة.

رد بخشونة:

– أنا لست سيدك، ألم تعرف أن الرئيس منع ذِكر هذه الكلمة في الوظيفة العامة؟. فتح محضر التحقيق، وبعد أن كتب اسمي وعمري وعملي والعنوان، سألني والكاتب يكتب أقوالي:

س: أين رأيتهما معاً قبل الحادثة؟

ج: في سوق باب اليمن.

س: كيف عرفت أن ذلك الرجل هو القاتل؟

ج: كان يُحدّق في الفتاة كثيراً، وأحسست أنه سيغتصبها....

س: ماذا تقصد؟

ج: فكّر في اغتصابها. حدق المحقق فيّ مستغرباً:

– ماذا، فكّر وإلا قال بأنه سيغتصبها؟ وأنت سمعت ذلك، وضّحْ كلامك.

– بصراحة عرفت ذلك من أفكاره. أسند المُحقّق ظهره إلى الخلف على كرسيه وقد عبس وجهه، ثم توقف على قدميه وهو مُنحن على المكتب ويداه تسنده ثم هتف غاضباً:

– أنت مُنجم وإلا مجنون، ثم ضرب الماسة بكفه وهتف:

– في معك خَبر عن الجريمة، ما عاد به إلا المجانين يزعجون السُلطات، في تلك اللحظة تدخل أحد الضباط، سألني:

– إذا رأيت الجاني هل ستعرفه؟

– نعم، سأعرفه.

– اذهب الآن وسنستدعيك حين نحتاج إليك.

لكنني لم أذهب إلى منزلي، بقيت لأعرف سير التحقيق مع القاتل. كنت أظن أنهم سيستدرجونه، حتى يعترف بجريمته ويحبسوه، لكنهم أفرجوا عنه.

سيطر عليّ الغضب. قلت للمُحقق:

– كيف تفرجون عنه، إنه قاتل، قاتل! استدرجوه حتى يعترف. كنت أظن أن لهم وسائل الاكراه مثل رجال الأمن الوطني. فكرت أن القاتل

سيخاف، لكنه وقف ثابت الجَنان دون خوف ينظر نحوي، عرفت أنه قاتل محترف، يُستأجر للقتل. كان يقول لنفسه وهو في حيرة من أمري" أتُرى هل شاهدني...آه، لو تقع في يدي..." رحتُ اهتف بقوة:

– يا أفندم، اقبض عليه، إنه وحش بشري، هيّا اقبض عليه. إنه يهددني.

أستوقفني المُحقق وأعادني إلى غرفة التحقيق، وكان أمامه شاهد يدلي بشهادة زور، حيث يحدث نفسه: "لابد أن تزيدني يا راجح خمسمائة ريال على شهادتي هذه لصالحك". بعد أن أنهى المحقق من استجواب الشاهد، التفتْ نحوي واتهمني بإزعاج السلطات وبالبلاغ الكيدي، وأمر بسجني.

دخلت السجن وكاد الغيض يقتلني. وجدته غرفة صغيرة مزدحمة بالمساجين، رائحتها كريهة. قلت لنفسي "كيف سأبق هنا ثلاثة أيام، وأنا لم أسجن من قبل". هتفتُ عند بابه عالياً:

– أخرجوني أنا لست المجرم، سجنتموني وأطلقتم سراح القاتل. جلست مع المساجين لا فراش لي ولا غطاء. قال لي أحدهم ذو لحية كثة وشعر طويل:

– يبدو عليك أنك لم تدخل السجن من قبل.

قلت بعصبية:

– نعم، حبسوني حين بلّغتُ عن القتلة والمجرمين

بعد أن هدأ غضبي شعرت بنفسي ككلب بوليسي، يشمُّ ضالته بين المساجين. بدأت اقرأ بعض أفكار المساجين وهم يحدثون أنفسهم. لفت انتباهي رجل كان يرشق رجل آخر ويفكر فيه "سأنام الليلة بجوار هذا الوَرْع (فتى وسيم) وهو ينظر إلى مؤخرته. حركاته تدل على أنه مُخنّث"، ثم انتقلت أقرأ شخصاً آخراً، كان يبدو غاضباً يقول لنفسه: "كلب، حقير، حبسني بفلوسه، سأقتل هذا النذل بعد خروجي". كان هناك من يحاول أن يتحدث معي، ومن يدعوني لمشاركة طعامه وقاته، ومن كان يضحك كأنه في مسرح لا يهمه شيء ومن يلعب الورق. أعجبني في السجن شيء واحدة، هو أنه كلما أحضر أحد طعاماً، يتناوله الجميع كأنهم إخوة. خيّم الليل علينا، وكان فكري مشغولاً بتفكير اللوطي، وكيف سيشبع رغبته بعد ما رأيته ينام بجوار ذلك المِثلي. بقيت يقظاً حتى منتصف الليل، تحملت رائحة ضرطهم وزفيرهم، فإذا بي أرى اللوطي يقترب إلى أن التصق بمؤخرة المثلي، ثم ابتعد بعد فترة. هجرني النوم وأنا أفكّر كيف سأقضي ثلاثة أيام في هذا المكان القبيح، الذي يفسد أكثر مما يصلح، وبعد نصف ساعة رأيت اللوطي وقد ألتصق مرة أخرى بالمثلي، وفجأة سُمع باب غرفة السجن يفتح، فتراجع إلى الخلف سريعاً واقترب عسكري ليوقظ المثلي، وأقتاده حسب قوله للتحقيق معه... وأنا ألوذ بالصمت ولم أنم بعد ذلك حتى الصباح.

وفي تمام الساعة التاسعة صباحاً، أخرجوني من السجن بعد أن دفعتُ خمسة ريال للسجّان ليفتح لي الباب، قادني العسكري إلى

مكتب مدير القسم، وجدت هناك خمسة من أبناء حيّنا، أحدهم مُكرد جِزام زوج مريم صديقة زوجتي، وقد قدم جاري التاجر ضمانة، وقال لي مدير قسم الشرطة كلاماً أحزنني كثيراً:

– بعد أن عرفنا حالتك يا عبد الفتاح؛ أطلقنا سراحك، لكن لابد أن تعرض نفسك على طبيب نفساني، فشهادتك غير مقبولة وأنت في هذه الحالة. عدت إلى بيتي مثقلاً بالحزن على نفسي، كيف شهادتي لا تقبل؟ فتحت نجوى الباب وهي تقول لي الحمد لله على السلامة، لاحظتها أنها لم تنم ليلتها، قالت لي وهي تبتسم بمكر أنثوي:

– كنتُ أظن أنك نمت ليلتك عند الشرموطة أمة اللطيف، ولكن حين عرفتُ أنك نمت في قسم الشرطة، ضحكتُ كثيرا وأخبرتُ جارتي مريم أنك لم تعد من القسم منذ أمس، فذهب زوجها لإخراجك. ثم نظرت نحوي تحدثني كأنني طفلها. قالت:

– ألم اقُل لك ألا تذهب، لن يصدقك أحد، قراءة الأفكار قد تورطك في قضية ما؟ قلت لها بأسف:

– نعم، يا نجوى، عملتُ بنصيحتك كثيراً، وبلعت غيظي جمراً مما أقرأه في عقول البشر، ناصبت العدى بعض الناس، كرهتُ البعض وهم يظهرون لي كل الودّ. يُخيّل لي أنني صرت منافقاً وباطنياً مثل الكثير من الناس، وأحياناً أظن أنني لِست عبد الفتاح الذي تعرفينه، يبدو لي أنني شخص آخر. لكن هذه المرة يا نجوى لم أستطع أن أكبح نفسي من الإدلاء بما أعرفه عن قاتل متوحش. أظنني كنت سأنفجر غيضاً؛ لو لم أذهب لأخلّص ضميري.

الفصل الثالث

وحوش المتاهة الأنيقة

(حين تعيش زمناً طويلاً مع الوحوش، تتأثر بسلوكهم، إلّا أن تكون قدّسياً)

* ١ *

في إحدى الأُمسيات، كنت أجلس مع مجموعة من الأصدقاء، في شارع المطاعم منطقة التحرير، وكان هناك بينهم مُخبر سرّي يلمحني شزراً. وهو يحدث نفسه: "لا ندري بماذا نُصنّفك يا عبد الفتاح: ناصري، ماركسي، بعثي.. يا زِفت أربكتنا، نحن نعرف أنك كُنت في عدن مع الشيوعيين ونراك الآن منسجماً مع الإخوان، ولك أصدقاء كُثر من الناصريين... كيف هذا. مراوغة لم نشهد مثلها" وفعلاً كنت أتعمد أن أربكهم حين أعرف أن أحدهم يتجسس عليّ.

مرة أخرى تقودني المصادفة التي تسيّرها الأقدار، لأشاهد مسرحاً جديداً من مسارح النفس البشرية، ولو أنه مسرحاً خفياً لا يشاهده غيري أو جنوني كما أسميه أحياناً. ذات يوم ذهبتُ وحيداً إلى حديقة الثورة عصراً، وكان هناك في الحديقة نساء ورجال وأطفال يمرحون. لفتت انتباهي امرأة تجلس وحيدة في عينيها حُزن، كانت نظراتها الحزينة تتبع الشباب، فشدني الفضول الذي ليس له داعٍ؛ لأعرف ما تعاني تلك المرأة. كانت تحدث نفسها بأسف شديد:" لم أكن يوماً مومساً، كانت نزوة عابرة تحت خيّال جامح، أخذتني تلك النزوة إلى الحقد على البشر جميعاً رجالاً ونساء. صحيح أنني كنتُ مغترّة بجمالي، أتباهى به أمام رفيقاتي، أفكر أنني سأذل به الرجل. لم أنسَ أول مَن أغواني، وفضّ بكارتي وأخذني إلى هذا العالم... أتُرى مَن سيكون فريستي اليوم؟ صمتت قليلاً وأنا أرمقها من حين إلى حين.

بادلتني النظرات ثم عادت تقول لنفسها: "هكذا أنتم تتوددون إليّ ثم تغادرونني باحتقار، بعد أن تفرغون قذارتكم في جوفي، يا سَفَلة. أصبتموني بمرض مُهلك لا شفاء منه. أفرغ أحدكم في جوفي سُمّهُ وأخبرني بكل وقاحة بمرضه. هذا المرض كنت قد سمعت أنه مرض لا شفاء منه. بكيت كثيراً: هي غلطة واحدة، غلطة واحدة أودت بي إلى الضياع، إلى الهلاك. إلى الجحيم. لم أستطع أن أخبر أحداً حتى أمّي، رفضت الزواج ممن أحببته. آه... كم كان مؤلماً لي حين رفضته، لم أعد أشعر بوجودي في هذه الحياة. لن أموت، لن أموت، حتى أصيب الفاً، لا؛ بل ألفين من البشر. لابد أن تعانوا وتتألموا مثلي. سأصطاد اليوم فريستي". نظرت إليّ وابتسمت بعد أن لاحظتني أحدّق فيها. قامت من مكانها، واقتربت نحوي تتذرع بسؤال:

– أراك وحيداً مثلي هنا، أليس كذلك؟

رأيتها أفعى ضخمة تقف أمامي، ستعضني بأنيابها. تذكرت حينها حيلة غصون زوجة الراعي حينما غدرت بي. قلت لها بغضب لا مبرر له:

– ليستُ فريستك.

انتابها جزع، فبقت لبرهة كتمثال، ثم ذهبت تحدث نفسها "أظنه شيطان... أو من رجال الأمن يعرفني" ثم شاهدتْ رجلاً وسيماً كانت نظراته تتبع النساء، قالت لنفسها: "ذاك الرجل يبدو صيّاد طرائد، سأصطاده". وبطرفة عين منها مضى الرجل يتبعها، خِفتُ على ذاك الشاب وتبعتهما، ناديته خوفا عليه:

– يا رجل... يا أخ، وقع منك شيء، عاد إليّ يسألني:

– ماذا وقع مني؟

رأيته ثعباناً هو الآخر، فلم أقل له شيئاً. خفت منهما الاثنين وانصرفت بعيداً عنهما.

أخبرت نجوى بهذا الأمر، فقالت بدلال:

– يا طيري، لا تشرب من ماء غيري. ضحكتُ من حكمتها التي أخذتني لأشرب من كأسها حتى الثمالة.

* ٢ *

حين كنت أعود مهموما والحزن بادٍ على وجهي أو أبدو سعيداً، أجد بوصلة نجوى تشير إلى جهة واحدة وهي أمة اللطيف، تراها السبب في حُزني أو فرحي. وجدت أن هذا العالم يبدو عالمين، أحدهما ظاهرا للعيان والآخر خفي، وهذا الأخير يحسه المرء في نفسه لا غير، لكنه هو المسيطر أحيانا على سلوك المرء. وأنا أعيش فيهما الاثنين. صحيح أن قراءة الأفكار موهبة عظيمة، يستطيع الإنسان أن يتفادى الأخطار التي تحيط به، لكنها سباحة في بحر لُجّي، فيه وحوشٌ وعواصف شتى، يصعب أحياناً على الإنسان العودة منه، إلى الشاطئ دون أن يتأثر.

ما كان يضحكني هو حين أقول لأحد ما قرأته في أفكاره لمجرد الغرور، كنت أشاهد فيه الشعور في الخوف مني، وهناك من يظنني

شيطاناً، كما حدث لزميلي مروان حين قلت له ما فكر فيه، قال لي بدهشة وقد جحظت عيناه:

– أنت تريد أن تصيبني بالجنون. أحيانا أفكر أنك لِست عبد الفتاح إنك... ولم ينطق كلمة "شيطان"

كنت أكبح فضولي كثيرا من دس أنفه في كل شيء، فكبت أسرار الآخرين تشكل حملاً ثقيلا عليّ.

ذات يوم بعد العصر اشتقت إلى النزهة أنا وأسرتي، فذهبنا إلى منتزه عصر، وهو ما يزال في قيد الإنشاء. جلس بجوارنا شابان وطلبا شاي. في البدء شككتُ أنهما سيفكران في بناتي، وقادني فضولي لأعرف ما سيفكران فيه. كان يبدو على أحدهما ابتسامة ماكرة والآخر يشيح ببصره بعيداً. قال ذو الابتسامة الماكرة:

– ألا ترى يا جميل أن موقع هذا المنتزه رائع؟ نرى المدينة كلها من الأطراف إلى الأطراف. هل ممكن أن تتجاوز الشارع الدائري يوماً ما؟ أشار الآخر بتحريك رأسه بالنفي، ثم أردف الأول قائلًا:

– كنتُ أود أن أصطحب "غادة "معنا، لكنها للأسف مريضة. تأثر وجه جميل واكتسى وجهه بالحُزن وقال:

– نعم، يا ثابت زوجتك طيبة، هي كأختي، من الصعب الحصول على زوجة مثلها، ومن الواجب الاعتناء بها جيداً، وسأساعدك في هذا الأمر إذا احتجت إلى ذلك. فكّر ثابت: "كم هو حزين عليها، هذا هو حال العُشاق" ثم ضحك وقال:

– لا، لا داعي سآخذها إلى الطبيب. شرب رشفة من كوبه وهو يحدث نفسه "أنا الذي جعلتك أخاً لها، أنا المغفل الغبي، أنا الحمار... تزعُم أنها أختك وأنت تنام معها على سريري يا خائن. لكن اليوم سيكون آخر يوم ترى فيها الدنيا". نظر جميل إلى ثابت وهو ينظر إلى الكوب بصمت وقال:

– يلاحظ عليك الحزن يا صاحبي، حقاً أنت أخ وفي.

– طبعاً، لابد أن يشعر الصديق بمشاعر صديقه، وإلا فهما ليسا صديقين. أخذت ملامح الغضب تكسو وجه جميل قليلاً، وهو يحاول أن يخفي غضبه وأخذ يقول لنفسه "يا خائن، يا غدار... موتك في جيبي، قطرات منه فقط لأنهي حياتك جزاءً لخيانتك لي، ستموت هنا بعيداً عن منزلي الذي كنت استضيفك فيه كثيراً، تدخله حين تشاء في غيابي. سأقتلك بالقتل الدبلوماسي وأمشي في جنازتك. سأنال منك اليوم، وغداً سأنال من غادة الخائنة، الحقيرة". بقيت شارد الذهن إلى أن سمعتُ نجوى تهتف:

– مَن شلَّ (أخذ) عقلك، البنات يردن العودة إلى البيت، لم نعد نحتمل البرد، وقد بدأ غروب الشمس. لم أستطع أن أكتم ما عرفته عن جريمة على وشك أن تحدث أمامي، أخذت الحيرة تعصف بي. فكرت أن أخبر نجوى بما عرفته، يمكن أن تساعدني في حل. حينما أخبرتها، قطبت حجبيها وهمست لي: قُم نمشي، أغضب شيطانك... يجلب لنا المصائب. ثم نادت البنات وقمنا نمشي من جوار جريمة، على وشك الحدوث. ولقول الحقيقة كنت أنقاد لها أحياناً لشكوكي في

قـوايّ العقليـة، ولإحساسـي بـأنني أعـيش حلمـاً أو جنونـاً، وأحيانـا كنـت أتمرد على نصائحها.

* ٣ *

بعد أسبوع من زيارتنا لمنتزه عصر، قلت لنجوى:

– مـا رأيـك أن نـذهب اليـوم إلـى منتـزه عصـر، إنـه مكـان رائـع. وكـان هـدفي هـو معرفـة إن كانـت هنـاك جريمـة حـدثت أم لا. لكـن الأسـرة فضّـلت الـذهاب إلـى متنـزه الثـورة، تلـك الزيـارة التـي رجعـت منهـا نجـوى باكيـة. ذهبنـا إلـى المتنـزه عصـراً، وجلسـنا بجـوار أسـرة أحـدهم كانـت امـرأة سـمينة، قصـيرة، ثـدياها كبيـران، تبـدو حزينـة. كانـت تنظـر إلـى أطفـال يلعبـون أمامهـا فـي المتنـزه وبسـمة حزينـة مرسـومة علـى شـفتيها، أحسسـت أنهـا تفكـر فـي شـيء يسـعدها ويحزنهـا فـي نفـس الوقـت. أخـذ الفضـول فـي رأسـي يحثنـي، لمعرفـة بمـا تفكـر تلـك المـرأة. وجـدتها تفكـر فـي حـزن: "أتُـرى مـاذا سـيكون مصـيرك يـا سـميحة آخـر العمـر؟ وقـد نـاهز عمـرك خمسـة وأربعـين عامـاً، وحيـدة دون رفيـق، كنـت فـي ربيـع العمـر أريـد حبيبـاً يـروي زهـر قلبـي العطشـان إلـى الحـب. أمـا والآن يـا رب قـد بلغـتُ هـذا العمـر، الـذي تحتـاج فيـه المـرأة إلـى رجـل دون شـروط. لا يهـم إن كـان متزوجـاً لـه أولاد أو يكـون: أعـرج، أعمـى... لا يهـم، أريـد رفيقـاً ولـو كنـت ممرضـته، يكفينـي أن أجـد إنسـاناً أتحـدث معـه فـي الوحـدة القاسـية آخـر أيـامي. صـمتت قلـيلاً وهـي تقلّـب كفيهـا وتسـأل نفسـها "يـا إلهـي مـا هـو نصـيبي ونصـيب أمثـالي فـي الجنـة، ممَـن لـم

يـذوقوا حـلاوة الـدنيا؟ فالرجـال لهـم الحـور العـين فـي الجنـة، ونحـن لا نعلـم مـا هـي مُتعتنـا فـي الجنـة، غيـر الأكـل والشـراب. هـل يمكـن أن نختـار أزواجنـا مـن الولـدان المُخلّـدين الـذين يطوفـون لخدمـة البشـر فـي الجنة، كما الرجال يختارون من الحور العين أم...؟!".

لـم أسـتطع أن أكـتم ضـحكي المفـاجئ، مـن تفكيرهـا عـن الولـدان المُخلـدين... اخجلنـي ذلـك فيمـا بعـد، التفتـت نجـوى تضـحك معـي دون أن تعـرف لمـاذا أضـحك، لتـداري عنـي جنـوني أمـام الآخـرين، ودمعهـا يكـاد أن ينهمـر. ثـم أخـذت تحُثّنـي عـن العـودة إلـى منزلنـا. كنـت فـي طريـق العـودة أقـرأ أفكارهـا، وهـي تسـب أمـة اللطيـف وخوفهـا علـيّ أن يكـون مصـيري مثـل مصـير قـيس بعـد سـحر صـفية. وكـان عقلـي مشـغولاً بـالتفكير بحـور العـين: "هـل حـور العـين هـن نسـاء فـي طـرفهن حـورٌ أم مـاذا؟" وقـادني تفكيـري أن فـي الأرض أيضـاً حـور عـين وجنـة ونار.

كثيـراً مـا كنـتُ لا أسـتطيع أن أكـتم ضـحكي المفـاجئ عنـدما أقـرأ تفكيـراً شـاذاً، مثـل المـرأة الحبشـية الفارعـة الطـول، التـي كانـت فـي صـالة انتظـار مكتبنـا، وهـي متجهـة إلـى مدينـة الحديـدة. كـان تفكيرهـا ذكوريـاً. شـدّني فضـولي لأعـرف تُفكّرهـا وهـي تنظـر إلـى امـرأة فاتنـة أمامهـا، وبصـراحة كنـتُ أفضّـل لـو أن تلـك الفاتنـة كانـت مُنقبـة، فجمالهـا كـان يشـد انتبـاه مـن حولهـا مـن البشـر. وإبّـان ذلـك شـد انتبـاهي أكثـر رجـل ملـتحٍ، كـان ينظـر شـزراً إلـى المـرأة الفاتنـة، يقـول لنفسـه "أعـوذ بـالله مـن فتنـة النسـاء، يفـتن خلـق الله، "مـا فـيش" ديـن ولا دولـة، لمـاذا يخـرجن

متبرجات". صمت قليلاً وهو يختلس النظر إليها ويمسح على ذقنه "هل هي متزوجه؟ هذه جوهرة لابد أن تُخفّى على الآخرين، تُرى إلى أي مدينة هي مسافرة؟، هذا الشره بين فخذي لديه ثلاثة نساء ولم يشبع."

عدت أنظر إلى المرأة الحبشية، كنت الاحظها تبلع ريقها عِدة مرات، تعض شفتها السُفلى وهي تجمح بخيال جنسي فاحش مع تلك الفاتنة، تتخيل نفسها رجلاً إلى أن وصلت إلى ذروة النشوة وهي تكتم شهقتها. عندها ضحكتُ بصوت عال دون شعور مني، إلى أن أوقفني عن الضحك صديقي حامد، قائلاً:

– ما هذا الجنون يا عبد الفتاح؟!

– هههههه.. لقد... أق .. أقذت المرأة...هههههه.

لا أدري ما الذي كان يقوله الناس عني في المكتب؟ لكنني كنت الاحظ نظرات إشفاق ترشقني وكان هناك منهم يرفع سبابته نحو الأعلى. ذهب صديقي عني وعدت إلى التأمّل في المسافرين أمام المكتب، ومما أصابني بالغثيان، أنني رأيت رجلاً في الستين من العمر، ينظر إلى فتى، حباه الله جمالاً أخّاذاً. كُنت أفكر أنه يشتهي أن يلوط به، لكنني حين قرأت أفكاره وجدت عكس ذلك تماماً. كنت أنفر كثيراً من قراءة مثل هذه الأفكار المريضة.

* ٤ *

كانت حادثة المرأة الحبشية، هي الركلة الأولى التي قذفت بي خارج وظيفتي، باسم التقاعد المُبكر لظروف حالتي النفسية. فقد استدعاني المدير ذلك اليوم، وعاملني معاملة أخوية وباحترام، لكنه كان يحدث نفسه "هذا المجنون، يمكن أن يعود وقد شُفيّ من جنونه" وأصدر أمراً بمنحي إجازة لمدة شهر مع كل حقوقي الوظيفية. استغربت من كرمه الذي لم أعهده من قبل. قلت له:

– لا أشكو من شيء ولا أريد إجازة، لا أحب أن أبقى دون عمل.

أبتسم وقال:

– لقد أصدرت توجيهاتي بمنحك إجازة يا عبد الفتاح؛ لترتاح من ضغط العمل، أنت عزيز علينا ولابد أن نهتم بك. ستعود إلينا وقد هدأت أعصابك وليس عيبا أن تذهب إلى طبيب نفساني، فكلنا نعاني من ضغوط الحياة... ثم سألني وهو يبتسم:

– لماذا كنت تضحك في الصالة؟ ماذا تخيّلت آخر مرة، قُل لي، أود أن أضحك معك. ابتسمتُ بخجلٍ، أخذني الغرور وقلت له:

– أضحكتني امرأة مسترجلة يا مدير.

اعتدل في كرسيه نحو الأمام وسأل:

– بماذا أضحكتك!، وألحَّ على أن أخبره.

– أنها مجرّد قراءة أفكار يا مدير.

– وهل تستطيع قراءة الأفكار فعلاً؟

– نعم، أستطيع يا مدير.

أسند المدير ظهره على الكرسي في وضع استراحة وقال: سأجعلك مدير مكتبي إن كنت حقاً تقدر على ذلك. ها، قُل لي بماذا أفكّر أنا الآن؟ ثم سار يغمض عينيه وكانت سكرتيرته أمامه. اقتربتُ منه هامساً في أذنيه وقلت له ما فكّر فيه...ضحك وضرب الماسة طرباً. ضحكت السكرتيرة أيضاً وكأنها عرفت بما همستُ للمدير وهي تفكر "من سيصدّق خيال مجنون لو أخبر أحدا آخر". قال المدير ضاحكاً:

– يا لخيالك الواسع يا عبد الفتاح هههه، لا، لم يكن ذلك صحيح، لكنني سأعطيك فرصة أخرى وكنت أعرف أنه كاذب في قوله. صمتُ قليلاً وراح يفكر ثم سألني:

– ها، والآن بماذا أُفكر؟ وراح يفكر "إنه بحاجه إلى إجازة لمدة شهر..." قلت له ما فكر فيه ولكنني لم أقل كل شيء؛ فقد خامرني خوف من قول الحقيقة كاملة. تظاهر المدير بالدهشة وقال:

– نعم، صدقت، يا سلام عليك يا قارئ الأفكار. أنت فلتّة هذا الزمان، سيكون لك شأن ولابد أن نستفيد من موهبتك، عُد إلى عملك وسأوفي لك بوعدي وسألغي الإجازة التي منحتك إياها إذا أردت.

عدت إلى مكتبي مسروراً، بأني سوف أحصل على ترقية، وجعلتني السعادة أحلّق بعيداً عن معرفة نوايا المدير الحقيقية نحوي. فرحتُ بموهبتي كثيراً هذه المرة، شعرتُ أن هذه أول فائدة حقيقة أجنيها منها. حلمتُ كثيراً بأن الناس تطلب مساعدتي ومودتي.

* ٥ *

عدت إلى بيتي والبهجة في عينيّ. أخبرت نجوى بخبر ترقيتي وبمستقبل آخر ينتظرنا، بعد أن أُهملت سنوات عديدة في وظيفتي. ذهبتُ إلى عملي في اليوم التالي، مُرتدياً ثوباً زاهيّاً على غير العادة، ساعدتني نجوى في تلميع حذائي وربطة عُنقي، وهي لم تعمل مثل هذا منذ زمن بعيد؛ لأنّها تدرك أنّ أناقتي هذه المرة لم تكن من أجل امرأة. وصلتُ إلى عملي أمشي جذلاً، فوق بساط الزهو. جلست في مكتبي منتظراً متى سيعلم زملائي بقرار المدير العام حول ترقيتي. كنت أعرف ماذا يفكرون به وهم ينظرون إليّ بعين الحيرة.

لم أخبرهم أنني سأحصل على ترقية، لأجعلها مفاجأة لهم. فجأة حدث شيء لم نتوقعه، دخل مكتبنا الرئيس ابراهيم الحمدي وحده دون حراسه، بلباسه المدني حول رقبته شال يغطي فمه قليلاً، دون أن يمر على مدير عام المكتب، سأل عن آلية العمل وعن معاملة الإدارة تجاه الموظفين. تقدم زميلي عبده ناشر مدير الحسابات وقال للرئيس:

– مديرنا رجل ماهر في عمله...

وأشاد به كثيراً على الرغم من كرهه له، ولزم باقي الموظفين الصمت. لكنني أدركت أن الرئيس لم يقتنع بشهادته. خرج الرئيس من المكتب، وأسرعنا ننظر خلفه وكم عدد حراسه في الخارج، فإذا به يركب سيارة فلوكس اجن ويذهب وحيداً. قال حامد مسؤول العلاقات الخارجية بفرح طفولي:

– هذا هو الزعيم الذي ينزل إلى الناس وليس العكس، ليجس نبضهم وأحاسيسهم، وظهوره بصفة القائد المدني والعسكري معاً، وسعيه

الحثيث إلى بناء الدولة المدنية الحديثة، وجعل الدولة فوق القبيلة وليس العكس.

جلست أشرب الشاهي وأنا أنتظر مفاجأتي. حضر المراسل وبيده ظرفاً لي، فتحته على عجلة من أمري، لأقرأه على زملائي والبهجة تغمرني {قرار *إداري. بمنح عبد الفتاح سعيد، في مكتب النقل البري تقاعداً مبكراً نظرا لحالته النفسية* ...}. تفاجأت مما لم أكن أتوقعه، انفرجت شفتايّ. أعدت قراءة القرار عدة مرات... أغمضت عينايّ، شعرت بأني هرمتُ قبل أواني، أتحسس رأسي ووجهي. أحسست بمطرقة هوت على رأسي، ورحت أحدث نفسي بحزن "كانت وظيفتي تخرجني عن انطوائي. هذا القرار يؤكد لي أنني مجنون، هذا ظلم. عوضاً عن مكافأتي أراه يعاقبني..." لا أدري، هل هو القدر أو الطمع الذي جعلني أخبر المدير عن موهبتي؛ لأنال استحسانه الذي أدى إلى توقيفي عن العمل. وعدت أحدث نفسي بما أعرفه عن المدير ولم أفصح بذلك لأحد، وألوم نفسي من إظهار موهبتي له، وددت لو أفضحه وأقول: "كنتُ أعرف أيها المدير أن لك رصيد في البنك، وشقة في باريس، تزوجت سكرتيرتك الأولى، ولك بنتا منها وتواعد سكرتيرتك الحالية.

كنت أعرف كل هذا ولم أحدّث أحداً، غير صديقي حامد الذي وجدته لا يفشي السر، لكن دهاءك أخبرك بأني أعرف هذا عنك، فأردت أن تستبق الأحداث، كي لا يأخذ أحد بقولي ذات يوم، إذا قلت لهم شيئاً عنك، وتؤكد للناس بأني مختل عقلياً. أمّنت ظهرك من خنجر يغدر

بـــك، وضـــربتَ ضـــربتك الاســـتباقية. لكـــن حركـــة التصـــحيح المـــالي والإداري ســـتجرفكم أنـــت وأمثالـــك إلـــى مزبلـــة التـــاريخ. إن شـــاء الله أراك فـــي الســـجن قريبـــاً" ورحـــت أتـــذكر غـــروري بمـــوهبتي أمـــام نـــاجي الراعـــي وزوجتـــه، ولمـــتُ نفســـي مـــرة أخـــرى علـــى إظهـــار مـــوهبتي علـــى أنـــاس نجهلهم.

أتـــى زميلـــي حامـــد وبجـــواره عبـــده ناشـــر وأنـــا أســـتعيد ذكريـــاتي فـــي المؤسســـة، كمـــا يســـتعيد المـــرء ذاكـــرة حياتـــه قبـــل المـــوت. قـــرأ الـــزملاء قـــرار المـــدير الجـــائر فـــي حقّـــي، واجتمعـــوا حـــولي يبـــدون اســـتغرابهم وأســـفهم. سمعت العديد منهم يقول:

– سترتاح يا عبد الفتاح، بدلاً عن الذهاب والإياب إلى العمل.

– لا يمثّـــل التقاعـــد نهايـــة الحيـــاة، هـــو بدايـــة حيـــاة جديـــدة، النـــاس فـــي الغرب يبدؤون التمتع بحياتهم بعد التقاعد.

– سنزورك يا عبد الفتاح، لن ننساك.

تعـــاطف الـــزملاء معـــي وأقـــاموا حفـــلا لـــوداعي، حضـــره المـــدير والقَـــى كلمـــة، أشـــاد فيهـــا بإخلاصـــي فـــي عملـــي. صـــفّق الحاضـــرون لـــه وأشـــادوا فيـــه لـــدعم موظفيـــه إلا حامـــد كـــان بجـــواري لـــم يصـــفّق، كـــان يهمـــس لنفســـه "كشـــفك عبـــد الفتـــاح يـــا مـــدير، فـــأردت أن تـــتخلص منـــه". كنـــت أعـــرف أسرار معظـــم مـــوظفي المكتـــب، لكننـــي لـــم أكشـــفها للغيـــر، بقـــت فـــي مخـــزن أسراري. قُلتُ لحامد والمدير يشيد بي:

– هل صدقّتَ يا حامد مشاعر المدير نحوي؟، رد بأسفٍ وهو يهمس لي: ما ألحق الضرر بك يا عبد الفتاح هو تجسّسك على أشياء يجب ألا تعرفها.

بقيتُ على منصة حفل التوديع أشهد زملائي. شاهدت فهد البرطي الذي نراه شجاعاً وهو مسكون بالرعب، عبد الحميد نراه مسكونا بالحب وقلبه يطفح بالحقد، ومحمد مُكرد الخامري يبدو سعيداً والنار تتقد في قلبه ومنير لا يتحدث إلا نادراً، كنا نظن أنه يُعاني من حالة نفسية، لكنه أعقل ممن حوله، وهناك من يبدي الورع والزهد وهو على العكس من ذلك. هكذا كنت أرى الغالبية العُظمى من البشر، يلبسون أقنعة لا تراها العين العادية ينبع القناع من ذواتهم، كل حسب مقدرته في التلون كالحرباء وفق بيئتها.

وجدت الطيبين قِلة مسكونين بالحُب تراه يشع في وجوههم. يبدون ابتسامتهم وهم في حالة يأس وغضب، لم يغيّر إنسانيتهم: مُعتقد، مذهب أو ثقافة. ما كان يُكدّر حياتي وتضيق به نفسي، هؤلاء الذين يسعون ليكونوا رعاة للمجتمع، يعملون الشر باسم الخير، في أعماقهم تسكن الشياطين والذئاب. مازال الكثير منهم أسير الماضي القريب، وقد بدأوا يخافون من الرئيس، خاصة حين ينزل خفية لمراقبة الفاسدين، تحت مبدأ قاعدته (وضع الرجل المناسب في المكان المناسب)، الذي لم تستسغه القوى التقليدية والعملاء، التي ترى مصلحتها أولاً فوق كل شيء.

* ٦ *

كانت تدور في رأسي تساؤلات كثيرة وأنا عائداً إلى داري، أسأل نفسي ماذا لو عرف كل إنسان أسرار الآخر، ألا يعني هذا التنازع بين البشر، أم ستسود الشفافية المطلقة ويزول الحقد والكذب والكره...بين البشر، ويكون هذا سلوك الإنسان الذي أراده الخالق أن يكون خليفة في الأرض؟

وجدت الحياة هرماً معكوساً، كلما طال توسعت قاعدته وتشعّبت ومسرحاً ذا وجهين، وجه خفياً بطله النفس البشرية وحدها، ووجهاً ظاهر للعيان يضجُّ بأفراده وكُلٌّ بطل فيه، وهكذا كانت حياتي مسرحاً لوجهي الحياة حافلة بالأحداث، وقد بلغتُ خريف العمر، وما أدمنت يوما أيّا من الشهوات السوداء، كبنت العنب، والقات والشمّة...التي أثقل كاهل المجتمع الذي قال عني: إنني لم أعش إلا نصف حياتي.

وصلت إلى بيتي دون أن أعرف كم من الوقت استغرقته في المشي، وربطة عنقي في جيبي، لا أدري متى دسّتها فيه. استقبلتني نجوى والفرح يرقص في عينيها. ضحكتُ حين استلقيت على فَراشي، سمعتْ نجوى ضحكتي. ابتهجت وقالتْ:

– بُشرى خير، إن شاء الله!

– بل شر. عبس وجهها وهي تنظر إليّ

– إذا لماذا تضحك؟

– شر البليّة ما يضحك أحياناً.

– ماذا جرى اليوم يا عبد الفتاح، ألم تحصل على الترقية؟

– ما يحز في نفسي هو توهّمي أن الشر يولّد خيراً، ولحظة الفرح تعمي البصيرة في الإنسان عن إدراك ما حوله، فقد أسعدني المدير بخبر ترقيتي، ولم أدرك هدفه الحقيقي، وها أنا عدتُ إليك بدون حتى خُفي حُنين. لقد طردني المدير يا نجوى طرداً رحيماً، منحني قراراً بالتقاعد قبل حلول أجلي في التقاعد، جازاني الملعون جزاء سنمار.

حاولت نجوى أن تخلع عني ثوب الحزن فقالت:

– لا يهم مادام راتبك سيصل إليك آخر كل شهر. لكنها لم تُقل الحقيقة، كانت هي حزينة ليس عليّ فقط، بل على نفسها أيضاً، فقد أخبرت صديقاتها بترقيتي، وترى بقائي في البيت أيضاً طوال اليوم، سيزيد من تدخلاتي في شؤون البيت وحين قلتُ لها:

– أصحيح تريدينني أن أبقى في البيت دون عمل؟

– نعم، فأنت الخير والبركة.

– ليس هذا رأيك الحقيقي.

عادتا نجاة وفاتن من الجامعة ونجوى تقول بأسٍ مشوب بالغضب: هذه مشكلتك يا عبد الفتاح، تجسسك على أسرار الآخرين، وكشفك لأسرارهم أتعبك. هناك مَن يكرهك، لكنه يظهر لك الاحترام وهذا يكفي، ما نريده من المرء هو أن يحترمنا.

تدخلت ابنتي نجاة وقالت:

– نعم، يا أبي، حدثنا مدرس الفلسفة، قال: "لو أنك نظرت إلى الماء بعدسة مُكبرة، ستبصر فيه الكثير من الطفيليات، فلن تشرب من الماء قط" وقال أيضاً: "هذا الكون ملئ بالأسرار، لو كُشِفت لنا مرة واحدة ليس من صالحنا، فالعقل ما زال غير مستعداً إلى ذلك" اقتربت نجوى تنظر إليّ بعطف وقالت:

– ستتعب يا عبد الفتاح كثيراً وستتعبني معك.

هو حقّ كما ذكرته، فأنا أشعر إنني أكره هذه الحياة الزائفة التي وجدتها في الناس، لكن هذه الموهبة لا تُعطى للبشر إلا نادراً، وهي الآن تجري في دمي على الرغم من آلامها، وكما يُقال إن لبعض الآلام لذّتها. وجدت نفسي حُرّاباً (مُخبر) ضخماً على خفايا البشر.

* ٧ *

تغيّرت عادات حياتي اليومية فالحياة بدون عمل مُملة للغاية. أحضرت تراباً خصباً إلى سطح الدار، وبدأت أزرع نباتات الزينة. اعتنيت بها كثيراً ومع الوقت أنشأت علاقة غير عادية مع النباتات. كنتُ أحدث الزهر وكأني أحدث فتاة جميلة. قبّلت يوماً زهرة، شعرت بإحساسها وخجلها وتناهى إلى سمعي صوت "ياه، لقد قبّلك. كيف وجدتين قُبلة الإنسان؟" ظننت أنني أسمع جنوني، لكنني وجدته فيما بعد ليس جنوناً. حينذاك تخيلت أن الزهر ينظر إليّ، وشممت أريجاً يفوح منهن على غير العادة، وأصبح عندي لكل زهرة اسم فتاة،

أحطها بشباك حتى لا تتضرر من الطيور والحمام. كنت أرى أن للنبات روحاً أيضاً وجدته في الجذور، التي يمد النبات بالحياة كما الروح فينا يمدنا بالحياة. كان أجمل أوقاتي، تلك التي أقضيها في بستاني الصغير. كنت الاحظ نجوى أحياناً دامعة العينين، وابتسم حين أسمعها توسوس لنفسها: "ما عاد باقي إلا أن تتحدث مع الشجر والحجر، يا عبد الفتاح ... الله ينتقم منك يا أمة اللطيف".

* ٨ *

كثيراً ما ترسل الأقدار مُعيناً للمرء في محنته، أو أن يريك محنة أسوأ من محنتك لتشعر بالرضا بما أنت عليه. من هذه الأقدار هو لقائي بقيس عصراً أمام بيت جاري التاجر، كان جالساً يتمتم بكلام غير واضح، يبتسم أحياناً. رحّبتُ به فقد وصل من القرية عصرا مع السائق عُمر دون أن يدفع له أجرة. جلستُ بجواره في الظل. بعد ذلك سالتهُ عن القرية، رحت أسأله عن حياته الخاصة:

– كيف ترى العشق بعد كل هذه السنين يا قيس؟ ابتسم وهذه أول يوم أراه يبتسم فيها مما أثلج صدري. نظر إليّ والحزن في عينيه، تحدّث بكلام صوفي مدهش، ما كنت أتوقعه مِمَن كُنا نعتقد أنه مجنون ليلاه، أخذ يتحدث وهو ينظر إلى الأفق البعيد، قائلا:

– عشت عمري مغموراً في العشق، أثناء صحوي ومنامي، عشق لا تعرفونه. أنتم تجدونه شهوة ولذة، وأنا أراه روحاً تضاف إلى روح العاشق ليحيا بروحين معاً في جسد واحد، يرى الدنيا بعيني المحبوب

ويسمع بأذنيه. خمسون عاماً وأنا أعيش مع الحبيب. يشاركني: طعامي، شرابي، أفراحي، أحزاني، يرافقني حيث أكون، ثم ابتسم وأضاف: كان الحبيب يحب الأسفار، فكنت أسافر حيث يشاء هو. حين أشعر بالجوع أراه يطعمني بيديه، يسقيني؛ حتى ثيابي الرثّة يساعدني في غسلها.

في إحدى المرات، أراد المحبوب أن آأخذه إلى البحر ليعوم. كان الأقرب لي هو الذهاب إلى عدن، لكن الدخول إليها والخروج منها صعباً كما تعرف، فذهبتُ إلى الحديدة. نزلت إلى البحر بثيابي، كما النساء وهن يخوضن الماء بثيابهن أمامي. أراد محبوبي أن نعوم في العمق معاً فتوغلنا عمقاً وأنا لا أعرف العوم. كِدتُ أن أغرق وأنقذني الناس من موت محقق. لم أكن أخشى على نفسي، بل كنت أخشى عليه هو. ثم ألتفت نحوي وقال: هل تطؤون الجمر لو طُلبَ منكم ذلك؟ لقد فعلتها مرة، وأراني أثر حُرق في قدمه اليمني ثم أضاف وهل ترون المحبوب في كل شيء جميل؟

صمتَ قليلاً ثم مسح عينيه وقال: حين ألحّ أهلي على تزويجي بامرأة ترعى شؤوني، رفضتُ أي امرأة أخرى تشاركني محبوبي لكنهم أصروا؛ فتزوجت " نعيمه" وجدتها امرأة لا بأس بها، يكفيها نصف ظل مثلي. كانت ترعى شؤون المنزل وتطبخ لي، والمحبوب هو من كان يطعمني بيديه. حين أرفض فراش نعيمة، كان المحبوب يتقمّصها؛ لأنجب منها طفلاً، لكنها لم تنجب كما تعرف.

صمتَ قيس ثم ذرفت عينه اليُمنى دمعة يتيمة. سألته:

– لماذا تبكي؟

– أنا لا أبكي، بل المحبوب هو الذي يبكيني، أمّا إذا رأيتني أبكي بالعين الشمال فذاك هو أنا. قمت من جوار قيس بعد أن أدهشني بحديثه. رأيت فيه أن الحب هو الذي يبكي أمامي.

* ٩ *

كنت كلما أريد جرعة من العشق اتّجه إلى حيث يجلس قيس. سألته ذات يوم وهو يحدق إلى السماء وقت الظهيرة:

– لماذا تنظر في السماء يا قائد ؟!

– أشاهد حبيبتي، تجلس هناك على ذلك الكوكب.

– كيف تستطيع رؤية الكواكب نهاراً؟!

– أنتم لا ترون الكواكب نهاراً، أما أنا فإني أراها كما ترونها ليلاً، ثم أشار إلى مكان في الكون، قال:

– أترى ذلك الكوكب؟ – أشار بأصبعه–هناك حيث تجلس حبيبتي.

– كيف ترى ما لا نراه؟! أحاط ركبتيه بيديه ثم قال:

– العاشق الحقيقي الذي قلبه مغمور بالحب يرى ما لا يراه الآخرون، ويسمع ما لا يسمعونه. فحين تتخلّص النفس من أدرانها، ويصفو الذهن ترى ما لا تراه الأبصار، وستصل إلى ذلك قريباً يا عبد الفتاح، فأنت أيضاً عاشق مثلي، لكن عشقك أفضل من عشقي. أنت تعشق المعرفة وتفتش عنها حتى في عقول الناس، دروب المعرفة أصعب

من دروب العشق. كنت أستمع إلى كلام أدهشني ولو أنني لم أفهمه، وأسأل نفسي "لماذا الناس لا تعرف حقيقته؟" سألته:

– هل تصلّى؟

– حياتي كُلها صلاه، تفكري صلاة، وقِبلتي في كل اتجاه، حيث تتجه بوصلة قلبي ومحرابي هذا الكون كله، فالرب هو المحبوب الأعظم الذي يطوف العاشقون حوله. لا أعبده خوفاً منه، أو طمعاً في جنته. غضبت في نفسي وقلت:

– ماذا تقول! ألا تخاف الله؟

– نعم، أنا لا أعبد الله خوفاً منه أو طمعاً في جنته، لو خفت منه لما أحببته. أليس مَن تخافه تكرهه؟ ومن تحبه يكون مسكنه القلب، تُلبّي كل ما يطلبه منك. لو أن الناس أحبوا الله حقّاً؛ لعبدوه حق عبادته، ولَما احتاجت البشرية إلى أنبياء، ولن يكون هناك شيطان في الأرض يتقرب بعض البشر إليه بأعمالهم الفاسدة، كما هو التقرب إلى الله بالعمل الصالح. أما ترى أن بعض البشر يعبدون الشيطان وأناساً ترى نفسها آلهة، حين ينصاع هؤلاء البشر إلى أوامرهم الخاطئة؟

أغمض قيس عينيه كأنه راح في حالة من الغفوة، وتمتم بكلمات كمن يصلّي. ابتسمت وقلت له:

– ستقول لي أنك تصلّي حين تغفو!

التفت نحوي وهو يبتسم.

– أتسخر مني! ماذا تعرف عن غفوة العشق؟ قلت له لا أعرف شيئاً. قال: هي استراحة كاستراحة المحارب لجمع القوى. فمن يغفو على ذكر الحبيب ويصحو على ذكره، يظل يُصلّي له في غفوته. قلت له:

– إن التَبَل الذي أنت فيه أضاع خمسين عاماً من حياتك. أعتدل في جلسته وأخذ يقلّب كفّيه وقال:

– ماذا تقصد بالتبل؟!

– هو أعلى مراتب الحُب.

– أنا لا أرى في الحُب أي مراتب، فالحب هو أفيون القلوب ومُسكرها ومُزهرها. أليس الأفيون أغلى من الذهب أحياناً، يبيع الإنسان نفسه للشيطان ليسفّ قليلاً منه، لكي يبقى لحظة في حضرة السعادة الغامرة. نعم أنا أدمنت أفيوني الذي يأخذ المرء من المحبة البدنية إلى المحبة الروحية، ويقوده إلى عالم آخر ليعيش الإنسان مع الحسناوات دون مساس. إذا توغل أحدٌ في هذا العالم يصبح ملاكاً لا تسكنه الشهوة، وتكون حور العين شقيقاته، ويصل الإنسان إلى عشقُ العشقَ، وهو دُرة في القلب يضئ درب العاشق ليوصله إلى العشق الأكبر. ومحبة مخلوقات الله توصلك إلى محبة الخالق.

صمت فجأة ولم يعد يتحدث، وبقي ينظر نحو الأفق البعيد وما عاد يسمعني.

* ١٠ *

وجدتُ أن صمت قيس لنصف قرن من الزمن، ما كان إلا تأمّلاً في الحُب الذي أوصله إلى أعلى مراتب الحب. نسي ذاته، زمانه، ملذاته، وراح يهيم ويتغنى صمتاً في محبوبه. حين التقى بمحبوبته، كان عمره خمسة وعشرين عاماً. حينها كان متزوجاً من ابنة الفقيه عبد الجبار في الجهة المقابلة لقريتنا، والآن هو في الخمسة والسبعين من العمر. شاخ أقرانه من قبله ومات بعضهم وهو لم يشخ، ينهل من نهر العشق الذي لا ينضب، وأوصله إلى الحب الأكبر وهو حب الله والتأمل في هذ الكون. هجر عالمنا هذا، عالم الغش والخداع والأطماع والشهوة.

ذات يوم كنت أناً وقيس نتحدث معاً، وكان بالقرب منا علي عبده الدّسّاس مع أربعة من رفاقه، كانوا يراقبوننا. سألني الدسّاس كيف استطعتُ أن أخرج قيساً عن صمته؟ قلت له:

– حين تتآلف الأرواح يداوي كلٌّ الآخر. حكّ الدساس رأسه وأخذ يحدّث نفسه:

"فلسفة مجانين... "

"ما طردوه من عمله إلا لأنه مجنون مثل قيس. كيف نستمع إليه!"

كنت أقرأ هذا فيهم، وأنا أبلع غيظي، إلا أحدهم أثلج صدري. قال:

– كلامك فيه الكثير من الحكمة يا عبد الفتاح، كأنه شعر.

كنت أنظر إلى قيس وهو يبتسم بين حين وآخر، ويقطب حاجبيه حيناً آخر حين كنت أتحدث مع الدسّاس ورفاقه. بعد مغادرة شِلة الدساس، سألته:

– لماذا كنت تبتسم وتغضب في آن واحد؟! قال: كنتُ أقرأ أفكارك وأنت تواري غضبك. لماذا تتحدّث مع أُناس لا يعرفون عن الأرواح شيئاً! ألا تعرف بأن أرواحهم هي التي سكنت الجسد، وليس الجسد هو الذي سكن الروح. سألته:

– وما الفرق في ذلك؟

– عندما الروح تسكن جسداً ما تصير ضيفاً على الجسد، والمُضيفُ هو الذي يمد الضيفَ بما لديه، وكل إناء بما فيه ينضح، وهكذا عندما الجسد يسكن الروح. لم أستوعب ما قاله قيس وكدت أفكر "إنها فلسفة مجانين" أيضاً. قام يمشي بزوجي حذاء مختلفين ومشيت بجانبه في شارع تشجّر حديثا بعد حملة الرئيس الشهيرة للتشجير، منها متنزه عصر وفج عطان في صنعاء وحديقة الثورة... نضر قيس إلى رجل، سألني عنه:

– هل ترى ذلك الرجل، وأشار إليه؟

– نعم، إني أراه.

– ماذا تراه يلبس؟

– أراه حسَن المظهر، يلبس بدلة جميلة، ربطة عنق أنيقة، يبدو مغروراً، لكن ماذا يعني لك، فقال لي:

– أنا أراه عُرياناً، عضوه الذكري صغير يكاد لا يرى من شعر عانته، ثيابه الداخلية غير نظيفة.

أصابتني الدهشة، غير مصدق ما أسمعه. سألته:

– أترى المخفي عن الأنظار؟!

– نعم، أنا أرى الناس عرايا منذ زمن، وهذا السر لم أبح به لأحد غيرك. لطمت ناصيتي وقلت بدهشة:

– كيف تستطيع أن ترى ما تستره الثياب! أترى ملابسي الداخلية؟ نظر إليّ وقال:

– نعم، أرى في ظهرك شامة مثلثة الشكل و...

– غير معقول! عقلي لم يصدق ما يسمع.

– لا تستغرب، عندما يفقد الإنسان البصر في عين واحدة، تقوى العين الأخرى وكذلك السمع. أليس كذلك؟ وعندما تعيش في الصمت زمناً طويلا، تقوى لديك البصيرة، فترى وتسمع بقلبك، ترى مالا يراه الآخرون وتسمع مالا يسمعونه. وليكن تأملك في الكون وفي الغير، وليس تأملاً في ذاتك، فالتفكير في الذات يشدك إلى القاع لتغرق فيه. ونحن نمشي معاً نحو شجرة سرو، اقترب منها ووضع أذنه على ساقها وأخذ ينصتُ جيداً. وقفتُ مذهولا أشاهده ورحت أضحك ساخراً:

– أتسمع الجماد أيضاً؟! رد بثقة:

–لا تسخر! حتى لا يسخر منك الآخرون يوم ما.

تـذكرت حـين تنـاهى إلـى سـمعي حـين قبّلـت زهـرة "كيـف وجـدتِ قُبلـة الإنسان"، وعدت أستمع إلى قيس وهو يقول:

– عنـدما يغـوص روح المـرء فـي كـان شـيء مـا ليفهمـه، يصـبح هـذا الشـيء شـفافاً وتغـوص حواسـه فيـه، ولـو هـذا الشـيء صـخرة، وإذا اسـتطاع الإنسـان الالتحـام مـع الطبيعـة، يعـرف أسـرارها ويراهـا جسـداً ينـبض بالحيـاة، تتحـدث معـه، فـالكون جسـد عمـلاق. ومـا هـذه الكواكـب والنجـوم إلا أعضـاءه، كـل يـؤدي دوره وعملـه، ومـا الإنسـان وأعضـاؤه إلا صورة مصغرة لهذا الكون.

شـعرتُ أن قيسـاً قُطبـاً صـوفياً وهـو يبـدو أمامنـا درويشـاً. كنـت أعـرف أن قيسـاً لـيس بقـارئ؛ حتـى يعـرف مـا قالـه الفلاسـفة عـن الكـون. وجـدتُ أن تأمله في الحياة، هو الذي أوصله إلى ما وصل إليه الفلاسفة.

سـادت فتـرة صـمت بيننـا ونحـن نمشـي كنـت أفكـر: "ينادونـك مجنونـاً، بـل أنـت أعقلنـا. لـك مَلَكـات لا توجـد فينـا، فتّحـت لـي أفاقـاً كانـت مغلقـة، هـا أنـا ذا أقتـرب ممـا تـراه وتسـمع. لسـت أدري أهـو حقيقـة أم وهـم " فـإذا به قد قرأ أفكاري وقال لي:

– مـا تفكـر بـه صـحيح، ستصـل بصـيرتك قريبـاً إلـى هـدفك يـا عبـد الفتـاح، ولكـن لا تهـتم لـرأي النـاس فهـم يجـرون خلـف شـهواتهم وأهملـوا أرواحهـم، والـذين يجـرون خلـف شـهواتهم، تجـد الكراهيـة تطغـى علـى المحبـة، وحيثمـا تجـد الكُـره تجـد الشـيطان حاضـراً وحيثمـا تجـد الحـب تجد الله.

افترقنا أنا وقيس، لكننا أتحدنا معاً في أشياء كثيرة، وكان يومي هذا حافلاً بالدهشة.

* ١١ *

عدت إلى الحي وأنا أفكر في تأملات قيس، كيف يرى ما لا نراه نحن ويسمع ما لا نسمعه نحن! ذكرتُ مقالته في هذا الشأن حينما قال لي "إن التأمل بالروح هو طريق الوصول إلى ما نرجوه من معرفة، التي هي أمامنا ونحن لا نراها، وسوف تصل إليه يا عبد الفتاح." فرحت بنبوءة قيس وكنت أود أن أبقى معه كثيراً.

بعد معايشتي قيساً، زادت عُزلتي عن الناس كثيراً ولم أعد أذهب إلى منتدى السلم، لِما رأيت وسمعت ما فيه من نفاق، وهذا الأمر أسعد نجوى لأنني لن أقابل أمة اللطيف مرة أخرى. كنت أجد نفسي في المنزل صامتاً، وحين أكون مع زهوري وطيوري أثرثر معهم؛ مَن يسمعني يظنني مجنونا فعلاً. كان إحساسي قوياً بأن نجوى تتألم لصمتي، وأجدها كثيراً تنصحني بالتنزه أحياناً أو الجلوس مع الجيران؛ لأخرج عن صمتي، وهي لا تدرك أن صمتي تأمل، أريد أن أصل إلى ما وصل إليه قيس.

ذات يوم بعد الظهيرة ذهبت إلى ديوان جاري الفخم، وجدتهم يمضغون أوراق القات، ذلك الذي أسميته "عشب الوهم" تلك الأوراق التي كان أسمها يوماً ما "ورقة الحبشي" أُدخلتْ إلينا على أنها ورقة

شاي. كان موطنها الأول في بني يوسف منطقة "شرار" ومن يقول في جبل "صَبَر".

بعد المرح وتبادل الحديث بينهم، بدأ الصمت يسود المكان والهموم تنضح من وجوههم، وهم ينتفون ما تبقى من الأوراق، ويحشون خدودهم المنتفخة. لم يرق لي المشهد وأحسست بأنني في زريبة ممتلئة بالتيوس، خاصة بعد أن رأيت بقايا القات الملقاة في الأرض. تذكرت ما قاله شاعري المفضل في هذا المقام:

"إنما القات حشيشٌ أخضرُ شارك الإنسانُ فيه البقرُ
وقضى إبليسُ فيهِ فتوةً وهو العصّارُ منه يعصرُ
قال فيهِ: "هو شهدٌ مُسكر خمْركم هذا حلالٌ فاسكرواْ"
ومشى الناسُ شياهاً بعدهُ تحتسي الداءَ الذي لا ينظرُ

خرجت من مجلس الوهم أبحث عن قيس الذي يرى القات كما أراه أنا، لكنني وجدته قد رحل وعاد إلى القرية. كنت أريد أن أتعلّم منه درساً جديداً في المحبة، والتي رأيتها ديناً، لو تمسّك الناس بها لعمّ الخير والسلام، لكنني شعرتُ أنه سلّمني مفتاحاً لمعرفة غير عادية ولم يعد أحد يراه في الحي مرة أخرى.

*** ١٢ ***

في الثاني والعشرين من أغسطس (١٩٧٦م) في هذا اليوم حدث ما لم أكن أتخيله، فهو يوم وقوعي في أسر غصون الثاني. خرجت

صباحاً أتنزه، فإذ برجلين ملثمين مسلحين يهجمان عليّ، ويضعاني في عربة وعصبا عينيّ بعمامة، وقاداني إلى مكان مجهول. ظننت أن قاتل الفتاة المغتصبة هو من اختطفني ليخفي دليلاً على جريمته. خُيل لي أنه حصل على عنواني من قسم الشرطة، أو ذلك القاتل الذي سُجنتُ بسببه لاتهامي إياه بالقتل. فقد قرأت فيه أنه يشك أنني شاهدت فعلته الشنعاء. رأيت نفسي أصارع أنياب الموت البارزة نحوي، أيقنت بالهلاك، وأنّ هذا اليوم هو يومي الأخير. هذا اليوم القريب البعيد. تذكرتُ أفراحي وأحزاني التي مرّت عليّ في حياتي، وما أحزنني حقاً هو ما اقترفته من ذنوب، ولم أكفّر عنها في حينه. هكذا فكرت وكأني على شفاه الموت. أوصلاني إلى بيت صغير في أطراف المدينة، يتكون من حجرتين على بساطها فراش متواضع، رأيته قبري هناك. وضعاني في إحدى زاويا الغرفة وأنا مشدود بالحبال. فجأة ظهر الراعي وبجانبه زوجته غصُون، يبتسمان بمكر. لم أصدق عينيّ، أطلقتُ زفرة في الهواء بعد أن تلاشى شبح الموت من أمامي، ضحكت كثيراً ودمعت عيناي من الضحك، على الرغم من وضعي المأساوي حدثت نفسي "إن كيدهن عظيم، كيف استطاعت أن تدبر أمر اختطافي!؟" . سمعت الراعي يقول:

– هربت في المرة السابقة دون أن تساعدنا، أمّا الآن لن تفلت منا بعد أن أكد لنا الفقيه مُقبل والبعض في قريتك أن لك صلة بالجن.

وراح يتحدث بحماس وبهجة:

– لقد وجدته يا غريب، واللهِ وجدته، لكن الجن حولوه إلى فحم. أنت تقدر أن تدلّني كيف أخرج الكنز. أسألهم كيف نخرجه، وسأعود إلى القرية الآن وأحضر لك نصفه سنصبح أغنياء، أغنياء يا غريب. وجدت نفسي لا أدري ماذا أقول لرجل لا يصدق إلا أوهامه ومعتقداته أن لي صِلة بالجن. خرج الراعي غاضباً بعد أن قيّد قدميّ بسلسلة حديدية بعناية. اقتربتْ غصُون نحوي، وهي تضحك وشعرها يتدلى كشلال ليل أمامي، تلاطفني بدلال. قالت:

– أتذكر حين قلت لك "لن تهرب مني؟" بسببك كان الراعي سيقتلني.

جلست تحدثني وهي تبدي مفاتنها عمّا جرى لها بعد هروبي من دارهم في القرية. قالت:

– يومها عاد الراعي إلى البيت قبل موعده دون أغنامه. وجدني مكبّلاً في الحبل الذي قيدتني به، هزني بعنف وهو يصيح:

–أين الغريب يا امرأة؟ ثم ضرب فأسه في الأرض وتأسف وقال "لقد ضاعت فُرصتنا، ضاعت... قد كُنت وجدتها، لماذا لم تراقبيه. لماذا لم تصرخي؟ اليوم أرشدتني شاة على كنز كبير، كانت تقضم العُشب حول صخرة مُسطّحة بجوار طريق قلعة الملك المنصوري، فبان ثقب جوار الصخرة. وحينما رميت حصاة في الثقب سمعت صوتاً يصدر رنيناً. وسّعت الثقب قليلاً فرأيت جفنة نحاسية كبيرة مغطاة. كانت فرحتي لا تسعها والأرض فتحت غطاءها فرأيتها مليئاً بالفحم، أغلقته وأعدت كل شيء كما كان وأسرعت إليك، وتركت الأغنام ترعى وحدها في المرعى. لقد حوّل الجنُ الكنز إلى فحم يا غصُون، ما ذا

أفعل...؟ يحدث هذا إذا اكتشف الكنز إنسان غير مرغوب عندهم. لو كان الغريب هنا سيساعدنا على إخراجه، هذا الغريب كان يقدر أن يعمل شيئاً. أين هرب؟ أين قريته؟ لابد أن نلتقي به وسوف أعطيه نصف الكنز."

فك وثاقي وهو يمسح عينيه، وكنتُ أحاول أن أستر عُري رجليّ بقميصي، وهو يلاحظ أنني لم أكن أرتدي سروالاً. كنت أظنه سيغضب لكنه غض طرفه وظل يندب حظّه، يلومني وهو يرشق فخذي بين لحظة وأخرى. سألني: هل مسّك بشيء؟ أقسمت له إنك لم تعمل بي شيئاً، لكن الشك كان يراوده وأظنه لم يصدقني أنك لم تمسسني بعد أن قيدتني بالحبل وأنا دون سروال، والغريب أنه أصبح ينام معي كل ليلة، ما لم أعهد منه من قبل وكان يذكر هروبك قبل النوم معي.

في اليوم الثاني حين ذهب إلى المرعى، رأى ثعباناً ضخماً يدخل من ذلك الثقب، يبدو أنه حارس الكنز، فلم يعد يقترب من تلك الصخرة. فكّر أن يلتقي بك بعد العيد حيثما تكون؛ لتساعده على استخراج الكنز، حتى لا تبطش بنا الجن، أمّا أنا فكنزي منك أنت تعرفه جيداً. حاولت أن أقنعها أن ما يفعله زوجها هذا جُرم، وما تريده هي فُحش، لكنني وجدت أن رغباتهما أعمت بصيرتهما. جلست أمامي تضحك في غنج ودلال ترفل بملابسها المغريّة، تحدثني والشهوة في عينيها.

* ١٣ *

نهض الراعي صباحاً يصالحني، يقول لي:

– سأعطيك نصف الكنز. ها، ماذا قلت...؟ فكرتُ أنه في حالة حُلم، يريد أن يكون حقيقة. وحين استقبلت كلامه في فتور؛ خرج من المنزل بوجه عابس وهو يهددني:

– لن تفلت هذه المرة منّا، قبل أن تساعدنا وإلا سيكون قبرك هنا، وهو يشير إلى أرضية الغرفة.

دخلت غصُون جلست أمامي بثياب مغريّة، قالت:

– زوجي يبحث عن كنز، وأنا أبحت عن ولد منك. كنت راضٍ بحظي مع الراعي من دون أولاد، لكن ظهور رجل مثلك في حياتي لديه موهبة فذة غيّر قناعاتي، وتمنّيتُ ولداً منك. لن تخرج من هنا حيًّا ما لم تطاوعني. سألتها وما أدراك بأيام البذار فيك ؟، تمايلت كغصن بانٍ وشعرها الحريري يغطي نصف بدنها:

– نحن النساء، نعرف هذا وقد جعلت لقائي بك هذه الأيام. خلعت حيائها واستلقت على فراش الرغبة، تتغنى بصوت الشبق المغناج. وإذ بقلبي يتغنى فيها:

أسمرْ نهبْ قلبي ما اقدرْ على صدّهْ يأسرْ قلوبَ الناسْ ،هذا الهوى فنّهْ
كيفَ امنعهْ يا ناسْ والقلب في يدّهْ يعزفْ على قلبي ألحانَ مِن حُسنهْ
أسمرْ وزهر البُنْ يفتشْ على خدّهْ طائش صغير السنْ يختال في غصنه

حاولت أن أغض بصري، لكن الصوت تغلغل فيّ وانتفخ "عبد الفتاح الصغير" بين فخذيّ، وقادني حيث يريد هو كما ينقاد جملاً من خطامه ولو إلى حتفه. حاولت أن أقنعها بأن تفك وثاقي وأنها استهوتني وسأعود إليها فأسرتي تبحث عني الآن، لكنها ذهبت تعدّ طعام الإفطار، وهي تقول:

– لن أُلدغ من جحرٍ مرتين ومن يكذب مرة من الصعب أن يصدّقه الناس.

جاءت تحمل صحناً به خبز وقليل من العسل. بقت تتناول إفطارها معي، وهي تحدث نفسها "ستبقى معي يا غريب ثلاثة أيام، عسى أن يكون لي ولداً منك يرث موهبتك".

حزنت على نفسي وأنا أرى موهبتي تُهمل من قبل مجتمعي، وتقّدرها امرأة يراها الناس من الأحجور (الغجر). عاد الراعي مساء يسألها بتعجب:

– هل أخبرك بشيء؟

– سنمهله يومين أيضاً وإلا أفعل به ما تشاء.

بقيتُ ثلاثة أيام وفق هواها. أدهشني تصميمها على تحقيق مطلبها بكل وسائلها المتاحة. أدركت هذا حين قالت: "يا غريب لن نستطيع البقاء هنا أياماً أخرى، لكن إذا لم أحبلْ سأعود إليك مرة أخرى وستُقابلني طواعية. كلّفني هذا اللقاء بك قيمة عشرة أغنام، وإلا سأخبر زوجتك بما كان بيننا خلال غيابك. اسمها نجوى، أليس

كـذلك؟ وستصـدقني حـين أصـف لهـا الشـامة التـي علـى ظهـرك والبقعـة السمراء الصغيرة التي جوار خصيتك."

بقيـت مـذهولاً مـن خطّتهـا اللعينـة! سـوف تشـوه سـمعتي علـى الأقـل. شـعرت بسـحرها وجمالهـا يتلاشـى عنـي، لـم أعـد أراهـا فاتنـة. ورأيـت أن المـرأة تسـتخدم عقلهـا أكثـر مـن الرجـل خاصـة عنـد الكِبَـرِ، وتحـول الضـعف إلـى قـوة. حضـر زوجهـا فـي وقـت متـأخر مـن الليـل، فقـد كـان يخـرج صـباحاً لا يعـود إلا لـيلاً، ليكسـب ثمـن بقـائهم فـي المدينـة. سـمعتها تقـول لـه بطريقـة الممثـل البـارع: "يقـول الغريـب، أن تـذبح جـدي أسـود، فـوق تلـك الصـخرة حيـث الكنـز، شـعر أرجلـه مـن الركبـة حتـى أقدامـه أبـيض اللـون، وشـعر أذنيـه مرقّشـاً بالبيـاض" قلـت الحمـد الله سيظل سنيناً يبحث عنه. ثم التفتتْ نحوي تهددني أمامه بدهاء:

– إذا لم تنفع تعويذتك يا غريب سنعود لنخطف أعز من تحب.

عـدتُ إلـى منزلـي وأخبرنـي الـبعض بـأنهم بحثـوا عنـي فـي: المستشـفيات، أقسـام الشـرطة... وعرفـت أن صـديقي حامـد صـرّح لأحـد الصُـحف عـن مـواهبي، واعتقـد أننـي مخطوفـاً مـن قبـل مجهـولين، يريـدون الاسـتفادة مـن مـوهبتي أو يريـدون فديـة، بعـد أن تأكـد لـه أننـي لسـتُ فـي قبضـة الأمـن الـوطني. ومـا أضـحكني هـو اسـتقبال نجـوى، حـين اقتربـت منـي تشـمُّ إن كـان هنـاك عطـراً غريبـاً عنهـا. عـبس وجههـا وطغـت علـى شفتيها بسمة ساخرة وهي تفكر" كان عندها" وسارت تقول لي بغيظ:

– كـان شـكّي فـي محلُّـه، كُنـت عنـد أمـة اللطيـف...ثلاث أيـام عسـل مـا يكفـي... خلّيهـا شـهراً. كيـف هـي اقتنعـت...؟، هكـذا تتمسـكن إلـى أن

تـتمكّن. اقتربـتُ منهـا وفـي قلبـي حسـرة مـن تفكيرهـا. تنحّـت عنـي جانبـاً وهي تقول بحدة:

– لا تلمسني. ارجع لها.

– يـا امـرأة، كنـتُ مُختطفـاً، وحـين أدرك المختطفـون أننـي لسـت المطلوب؛ أفرجوا عني.

– لقـد صـدّقتُك فـي القريـة، حـين غبـت ثلاثـة أيـام، وكيـف تريـدني أن أصدقك هذه المرة. لكنها بلعت شكّها فما عساها أن تفعل.

*** ١٤ ***

مـن التـواريخ التـي افتخـر بـه هـو يـوم الثالـث مـن ينـاير(١٩٧٧م) وصـلتني دعـوة مـن مكتـب رئـيس الجمهوريـة "إبـراهيم الحمـدي". دخلـتُ مكتبـه وكـان بجانبـه قائـد الجـيش...، ومسـؤولون آخـرون مـنهم محمد خمـيس، رئـيس جهـاز الأمـن الـوطني، الـذي عانـت منـه القـوى اليسـارية الويـل. تـأمّلتهم جميعـاً، لـم أقـرأ شـيئا فـيهم، لكـن مـا خفـتُ منـه هـو تفكيـر نائبـه. تصـبّبَ جبينـي عرقـاً علـى الـرغم مـن الطقـس البـارد. سـألني الرئيس وهو يوقّع على بعض الأوراق:

– يقال عنك أنك تقرأ الأفكار؟

أجبتـه وأنـا أنظـر إلـى مكتبـه المتواضـع، الـذي يبـدو كمكتـب وزيـر ولـيس رئيس دولة:

– يا سيادة الرئيس، إنّه مجرّد تخمين لا أكثر لا يؤخذ به.

– سمعت بأن لك خِبرة في هذا المجال، نود أن نتحقق من ذلك، فنحن نهتم بالمواهب. ألتفتُ نحو الحاضرين معه، فاستأذنوا الرئيس وخرجوا من المكتب. حمدتُّ الله على ذلك، وجدتها فرصة كي أخبره بما قرأته في نائبه :

– يا سيادة الرئيس، لم أرد أن أخبرك أمام قائد الجيش. نعم، لي باع في قراءة الأفكار، وإن شئت أخبرتك بما قرأته في ذهن النائب، تبسم وهو ينظر إلى أمامه وقال:

– قُل ماذا عرفت؟

– إنه يضمر لك شراً.

رد بوقار: لا، أنت مُخطئ في هذا، هو أخلص القادة عندي، وبمنزلة أخي وقد أحبط محاولة للتخلّص مني.

– سيدي الرئيس، قد يأتيك الشر من مأمنه.

– أولاً أنا لست سيّدك بل أخوك الرئيس، وهذه الجمهورية خالية من الأسياد كما أنها خالية من العبيد، والأمر الآخر لا يموت الإنسان إلا بعد أن يستوفي أجله. ثم ذهب يفكر في جدول أعماله. قلتُ متباهياً:

– هل أخبرك يا سيدي بما فكرتَ به أنت الآن. رد وهو ينظر إلى مكتبه:

– لا، انصرف الآن سنستدعيك في يوماً ما.

حين خرجت من مكتب الرئيس، كنت خائفاً من نظرات النائب ورئيس جهاز الأمن الوطني نحوي، وتوقعت منهما شراً. شعرت بالبرد

يسفعني ويغزو عظامي وأنا أمشي في الشارع. لم أدر أهو الخوف أم الحمى داهمتني. وصلت داري حزيناً بسبب ما عرفته من النوايا السيئة والمكروه الذي سيصيب رئيسنا، ورأيت أحلام الأمة اليمنية تنهار أمامي.

* ١٥ *

ذهبت إلى النوم والحزن يدثرني. لم أخبر نجوى بمعاناتي هذه المرة، فهو سر لا يؤتمن النساء عليه فالأمن الوطني له عيون حتى من النساء، وقراءتي ليست دليلا في شيء. زمّلتني برداء وأنا أرتجف من البرد، وهي تقول:

– الله لا يسامحك يا أمة اللطيف...

لم أعد أهتم لغيرتها. تركتها تبلع شكّها الممل.

نهضت في منتصف الليل مفزوعاً والعرق يتصبب من جسدي، حين وكزتني نجوى بيدها لأصحو من نومي، كانت قد سمعتني أصيح بصوت مختنق. سألتني ماذا جرى؟، قلت لها الحمد لله: إنه حُلم مرعب...

– وما هذا الحلم يا عبد الفتاح، أفزعتني؟!

– كلاب مسعورة بوجوه بشرية، تسرح في صنعاء، تعضّ الناس، يدخلون المنازل. يتسلقون الجدران. أحاطت ببيتنا مجموعة منهم، تسلق أحدهم البيت ودخل من النافذة. هجم عليّ، فتح فمه كالتمساح وحاول ابتلاعي.

مـن تلـك الليلـة أصـبحت الكـلاب تطـاردني فـي أحلامـي، والحمـى تُداهمني، أقوم مفزوعاً أصيح:

– كـلاب، كـلاب... بقيـت أيامـاً أفـزع مـن النـوم حـين تهـاجمني الكوابيس.

اعتلّـتْ صـحتي وقلّـتْ شـهيتي للأكـل ومرضـتُ مرضـاً شـديداً. اتصلت نجوى بشقيقي صالح؛ فجاء يصطحب طبيباً معه ووصف ليّ دواءً لم يفد بشيء. لستُ أدري هل كان الخوف من نائب الرئيس، أم هي الحُمى اللعينة. جلس الأهل حولي. كنت أنظر إلى نجوى وهي صامتة تضع كفها الأيمن بجانب خدها، تحدّث نفسها بحزن "لم يأتوا أهلك للاطمئنان على صحتك، يا عبد الفتاح، بل يتحسسون ما لديك".

ما قرأته في أخوتي أزاح الغشاوة عن عيني. رأيت أنني أعرفهم لأول مرة، شعرت بصداع شديد. خرج إخوتي وهم يدعون لي بالشفاء بألسنتهم بما ليس في قلوبهم، إلا شقيقتي زعفران التي كانت خائفة على مصير بناتي، عكس ما كنت أتوقعه منها، فقد كنت أشك بحبها لي ولبناتي.

كان مرضي درساً قاسياً لي في الحياة، اختلفت معاملتي مع الأقارب والآخرين. كرهت موهبتي في قراءات أفكار الناس، كنت أفضّل أن أبقي بريئاً، لا أعرف ما يبطنه الناس من حولي جعلتني هذه الموهبة أحمل صفات أكرهها وفي صراع معها، لا أود أن الوّث نفسي بها. وهكذا كنت أجد الزيف طاغ على سلوك البشر، هناك من

فـي ذاتـه القـبح، وهـو يظهـر الجمـال، ومـن هـو حـزين وهـو يبـدي السعادة، ومن هو ملآن بالشوك، وهو يبدي زرع الزهور.

* ١٦ *

فـي السـابع مـن فبرايـر (١٩٧٧م) أخـذتني معجـزة جديـدة، إلـى كسـر شـفرة مـن شـفرات الطبيعـة، التـي يراهـا النـاس إنهـا مـن الخـوارق، ففـي ضُـهر ذلـك اليـوم أخـذت عنـدي خلايـا الرؤيـة تتكشـف داخـل شـبكة العـين، وأحسسـت بـأن حدقـة عينـي تتسـع علـى غيـر العـادة، كنـت حينهـا فـي غرفـة نـومي أنظـر فـي البـاب والجـدران. بـدا لـي أن البـاب شـفافاً، ورأيـت نجـوى وهـي تمشـي فـي الصـالة وبنـاتي يتجـولن فيهـا. لـم أصـدق عينـيّ، اجتـاحني شـعور بالدهشـة لـم أعهـده فـي حيـاتي. صـحيح أننـي كنـت فيمـا سـبق أشـاهد مـا يخفـى عـن الأنظـار للحظـات أحيانـاً، لكننـي كنـت أرى ذلـك خيـالاً أو جنونـاً، لا يسـتحق الاهتمـام. أمعنـت النظـر خـلال البـاب وأنـا فـي غايـة الدهشـة. توقـف عنـدي الـزمن برهـة حتـى التـنفس لـم أعـد أشـعر بـه، كانـت ابنتـي الوسـطى فـاتن خلـف البـاب، رأيتهـا وهـي تكـنس الصـالة، فتحـتُ البـاب لأتأكـد هـل أنـا أتخيّـل، أم أن بصـري أصـبح ينفـذ مـن خـلال الأجسـام الصـلبة! وجـدتها تقـوم بعملهـا بثيـاب شـفّافة تكـاد تكـون عريانـة. فكـرت بمعاقبتهـا لكننـي تـرددت؛ حتـى أتأكـد مـن صـحة قـواي العقليـة. ذهبـت إلـى المطـبخ أمشـي رويـداً كلـص خـائف، أبصـرت نجـوى شـبه عريانـة وهـي تغسـل صـحون المطـبخ وسـرحت عينـاي تنظـر محتويـات الثلاجـة وهـي مغلقـة... أمتـزج فينـي الخـوف والفـرح معـاً. لـم أعـد أدري مـاذا أقـول، حـين قلـت لهـا وأنـا أبتسـم مـا تلبسـه مـن ملابـس

داخليه، لم تلتفت كانت تقوم بعملها غير عابئة بجنوني أو ما يقوله شيطاني كما تعتقد، همستُ لها:

– يا نجوى، أراكم عرايا... التفتت نحوي بدهشة.

– غير معقول! أترى المستور عن العيون؟ حدّثت نفسها: "والله إن الجنُّ ازدادوا في رأسه، يا الله تستر على بناتي!" عِدتُّ إلى غرفتي مشوش الفكر غير مُصدق ما تراه عيوني، التي ينفذ منها البصر كالإشعاع، ليصوّر ما يُخفى عن الأنظار.

أتت نجوى إلى غرفتي وهي تضحك، في يدها ثلاجة شاي. سألتني ما في داخلها؟، وحين أخبرتها بما فيها من عصير المنجو بُهتت ولم تفكر في شيء، كأن عقلها أصيب بالشلل عن التفكير، ثم سارت تختبرني بأشياء أخرى وأنا أجاوب بما تسألني عنه. ومن مكر النساء إنها كانت تفكر في أشياء أخرى؛ حتى لا اقرأ افكارها ومع هذا أرجعت كل ذلك إلى أنه عمل شيطاني.

خرجت من باب منزلي إلى الشارع؛ لأرى الناس هل سأرى كما أراه في بيتي، بدأ الأمر كأنني دخلتُ نادي العُراة. وضعت كفيّ في جبيني وأنا أقول لنفسي "يا للهول...: أطفال، نساء، رجال، كلهم يمشون أمامي عرايا. مشيت إلى حديقة الحمدي وأنا أطأطئ رأسي نحو الأرض، خوفاً ورهبة من هول ما أرى. لا أدري هل كنتُ خائفاً من الناس الذين يمكنهم أن يعرفوا أنني أرى عريهم؟ إضافة إلى عريهم الداخلي، أم أنني تماديت في الجنون. كنت أحاول غض بصري عما أشاهده، ولكن لا فائدة. جلست منزوياً إلى جذع شجرة

برقوق؛ حتى لا أشاهد عُري الناس. تذكّرت قيساً وهو ينصت لصوت الطبيعة وأخذت أنصتُ إلى ساقها كما رأيته يفعل. في البدء لم أسمع إلا هبوب الريح، بقيت أنصتُ مغمض العينين، شعرت بذاتي تنصهر في الشجرة، فسمعت تشقق لحاءها، هدير يأتي من عروق الأرض، انتقلت من شجرة إلى أخرى، غير مصدق ما أسمعه. كنت أسمع أصواتاً مختلفة لكل شجرة، كما الناس لهم أصوات مختلفة. سمعتُ ورأيت ما أخافني كأنني أرى وأستمع إلى جنوني. رحت أتحدث بصوت عال إلى أن أخرجني مما أنا فيه بعض الفتيان، حين اقتربوا مني وهم يضحكون على ما أقوله، كأنني كنت في حلم والناس ينظرون إليّ، يشيرون بأيدهم فيها إشارة بأنني ربما أكون مجنوناً. لم أبالي بإيماءاتهم فسخريتي منهم كانت كبيرة، فهم عراة أمامي. كنت مبتهجاً أحدث نفسي بموهبتي الجديدة.

* ١٧ *

رجعت إلى بيتي مسروراً بموهبتي الجديدة، التي كنت أظنها وسوسة أصبحت من خلالها أسمع ما لم يسمعه غيري. بدأت أسمع أصواتاً لم أكن أسمعها من قبل، كهبوب النسيم، حفيف الأوراق المتساقطة، همس الناس، زحف الحشرات والهوام. وجدتني أسمع صوتاً أقل من عشرة ديسي بل تقريباً. كنت أخجل حين أشاهد الناس عراة، بالإضافة إلى ما أسمعه من همس النساء وكلام يخدش الحياء. كانت الأصوات

تتداخل مع بعضها، لكنني كنت أختار أحدهم وأنصت إليه دون غيره، وكأن في رأسي مذياعاً يختار الموجات المطلوبة.

ذهبتُ اليوم الثاني مع أسرتي إلى الحديقة، ورأيت مصادفة المرأة المصرية تجلس بعيداً عنا، ومازال في مخيلتي كلامها وهي تشكو زوجها في نفسها. كانت مصممة على العودة إلى مصر، يبدو هذه المرة عليها الغبطة والسرور، تداعب ولديها ـ تعال يا واد، خُذ يا واد ـ وهي تحشو فمّيهما بالطعام. أقلقني الفضول لأعرف سبب سعادتها بعد تعاستها، وقد مر على مشاهدتي لها حوالي شهرين. حاولت أن أقرأ أفكارها، لكنها لم تكن تفكر في شيء بل تلاعب طفليها. أخبرتُ نجوى أن تذهب وتجلس معها، وهمست لها بما تحدثها. رفضت نجوى في البداية أن تشاركني هلوستي وجنوني، لكنني قلت لها: بعد أن تعودي سأحدثك عن مفاجأة.

ابتهجت المرأة المصرية ورحبّت بنجوى. وقتذاك وجّهت أذني كأنني ألتقط موجات صوتيه معيّنة لحديثهما، وأخذت أستمع إلى ما دار بينهما من حديث:

– أهلا بك، تفضلي يا بتوع الكرم. وبعد أن تعرّفت نجوى على اسمها " حميدة" ضحكتا قليلاً، وبدأت نجوى حوارها معها:

– علمت يا حميدة، إنكِ كنت عازمة على العودة إلى مصر، وأن زوجك سيتزوج عليك؟ لطمت حميدة صدرها مندهشة:

– يـا خرابـي، إزّاي عرفتـي؟! والله العظـيم مـا قُلـتُ لأحـد. آه، منـك يـا عبـد الصـمد، أنـت عـاوز تفضـحنا، تخـرج أسـرارنا للنـاس... أُمّـال البلـد عرفت كلها، يخرب بيتك يا ابن تفيده.

مـادام عرفتـي كـل حاجـة يـا أختـي، حـا قـول لـك أزّاي شكمتُ جـوزي عـن الجـوازة دِه ورجّعتُـه لبيتـه وولاده. وراحـت تحـدثها بصـوت مـنخفض: شـوفي يـا أختـي الـزوج اللـي عينـه زايغـة، يبقـى مثـل التـيس، لازم تحلبيـه. آ، أمّال ولو كان تيس ينحلب برضو.

كنـتُ يـا حبيتـي أنـام مـع جـوزي يـومين فـي الأسـبوع علـى شـان صـحّتهُ، لكـن لمّـا عرفـت أن عينـه زائغـة، قلـت لنفسـي: لا، بـلاش صـحته اللـي حتأخـذه منـي. بقيـت أنـام معـه فـي اليـوم مـرتين هههههـه وأحيانـاً أقولـه وا النبـي زيـد الثالـث لمّـا نشّـفت نبعـه، خليتـه يمشـي مثـل التـيس المخصـي يـا أختـي هههههـه وإن جـاءت لـي العـادة الشـهرية يـا أختـي، أحلبـه برضـو إلـى لأرض ولـو تعـب بُقـي. هـذه نصـيحة منـي لـك يـا أختـي: أحلبـي راجِلـك، علـى شـان يمشـي علـى عجـين مـا يلخبطـوش، وماتنسـيش تنظفي جيوبه أوّلاً بأول.

عـادت نجـوى إلينـا وهـي تضـحك وأنـا كـذلك. ثـم قلـت لهـا كـل مـا قالتـه المـرأة المصـرية ونصـيحتها، وأخبرتهـا بمفاجـأتي لهـا وهـي "السـمع عـن بعد". نظرت إليّ بحنق:

– أننـي أخـاف مـن حقـك الجـن يـا عبـد الفتـاح. كنـت أظـن أنـك ستشـتري لي الخاتم الذي وعدتني به.

* ١٨ *

ازدادت عزلتي بعد موهبتي الجديدة؛ حتى في منزلي كنت أغض بصري عن مشاهدة بناتي. لم أعد أجلس معهن، أتناول طعامي منفرداً. سمعتُ ذات مساء ما دار بين نجوى وبناتي من حديث، وهن يتهامسن في الغرفة المجاورة والباب مغلقاً:

– أبوكن يمر في حالة نفسية وسيشفى قريباً. سألت فاتن أمها بحزن:

– لماذا لا نخبر عمنا صالح؛ يأخذه إلى الطبيب؟

– لا، يا ابنتي، أبوك ليس مجنوناً، لا أريد أهله أن يعلموا بهذا الأمر، سيكونون أوصياء عليكن، وسيشاركوننا منزلنا هذا إذا لم يستولوا عليه إصلاً. ثم ذهبت نجوى إلى الحمام وأغلقت الباب خلفها. سمعتها ورأيتها وهي تبكي وحينما خرجت قلتُ لها:

– لقد سمعت تحاوركن أنت والبنات. لماذا يشكّين من حبي لهن؟ أجابت والدمع يترقرق في عينيها:

– يا عبد الفتاح، اختلفت معاملتك معهن، لم تعد تجلس معهن ولا تمرح معهن، تأكل منفرداً، حتى في البيت تريد أن تعيش وحيداً. ماذا عملت لك أمة اللطيف هذه الساحرة –دمعت عيناها–إذا هي ستشفيك من هذا الجنون تزوّجها، لكن لا تحضرها إلى هذا البيت. لا نود أن تصاب بالجنون فلن أستطيع حماية ثروتك من تسلط أهلك. تزوجها واخرج يا عبد الفتاح من عزلتك هذه عساها تفك سحرها عنك، اخرج إلى الناس ولو رأيتهم كما تراهم... بكت وأبكت البنات معها. حينها

لعنتُ مواهبي، لعنتُ الميراث الذي يفرّق بين الإخوة والأهل. على الرغم أن ثروتي بسيطة إلا أن نجوى تبالغ في تخوفها. كنت حينما أخرج مع الأسرة للنزهة وأرى امرأة نجلاء، تهمس لي نجوى "وغضوا من أبصاركم". كنت أضحك وأقول لها:

– لا تفتنك العيون، هي ليست جميلة... تقول لي بخوف:

– اخفض صوتك، سيقتلك الناس إن اكتشفوا أنك ترى عورتهم.

ذهبت يوماً إلى مكتب النقل البري؛ لزيارة أصدقائي في العمل وإشباع غروري أيضاً. رحبوا بي كثيراً، تأسفوا على فراقي لهم. جلسنا نضحك ونتذكر أشياء مضت فيما بيننا، كنت أضحك وأنا أشعر بالخجل حين أشاهدهم عرايا، أحدثهم وأنا أحني رأسي نحو الأرض. تفاجأت حين رأيت أير أحد الموظفين يكاد لا ينظر أو أنه خنثى، وكان يتباهى بغزواته الغرامية. كدت أن أضحك عاليا لكنني بلعت ضحكتي المباغتة، فمازلت أتذكر ضحكتي الهستيرية التي أخرجتني من وظيفتي بحجة التقاعد المبكر. وأصدقكم القول إنني بعد تلك الضحكة أصبحت أكره الضحك.

خلال العودة إلى منزلي، كنت أغض بصري عن مشاهدة الناس وهم يبدون أمامي عرايا، وأفكر كيف سأعيش بينهم وأشعر بالحسرة حين أرى الذين يعرفونني يتحاشونني؛ حتى لا أعرف أسرارهم. قلت لنفسي " تُرى ماذا لو عرفوا أيضا أني أراهم عرايا، ماذا سيفعلون بي؟"

*** ١٩ ***

العُزلة هي عدة أنواع، قد يفرضها المجتمع عليك وقد تفرضها أنت على نفسك، لكنني كنتُ أعيش العُزلتين معاً. ضاق صدري من البقاء في البيت، كما ضاق صدري قبل ذلك من الخروج إلى الشوارع ومشاهدة عري الناس، وقررت الاختلاء بعيداً عنهم لأستريح. وكان الأقرب إليّ هو تبة جبل عطان الذي ألفتُ الذهاب إليه سابقاً بعد تشجيره ضمن موسم التشجير؛ ليكون منتزها في المستقبل.

وجدت الجبل فيه هدوء أخذني إلى عالم آخر غير عالمنا المألوف، أتأمل في الكون وخالقه، أسمع أصوات الناس وهم يتحدثون عن بُعد. أصبح رأسي يعج بأصوات متداخلة كثيرة، أفهمها وأحياناً لا أفهم شيئا. رجعت إلى بيتي في أول زيارة للجبل، وفي أذني سدادة؛ لأخفّف من شدة الأصوات. عندما شاهدني أهل حيّنا تهامسوا:

"سيرهقونه الجن، ما فائدة سدادة الأذن، والجن في رأسه يوسوسون لهُ، هههههه"

"لا تتقربوا منه... "

"يا خُبْره (يا أصدقاء) ادعو له بالشفاء، أخوته سيرثونه حيّا".

كلام الناس من حولي جعلني أبدو مجنوناً، وشعرت بأني أصبحت كذلك حقّاً، وأن كل ما أراه وأسمعه خيالاً لا غير. حينها قررت الذهاب إلى صديقي المحامي محمد سعيد العبسي وأكتب وصيتي لأحمي بناتي من طمع الغير. بنيت لي كوخاً صغيراً من الأحجار والأخشاب والصفيح على الجبل. أتناول وجباتي في البيت وأعود إلى

نافذتي على العالم والسدادة في أذني. أعتقد بعض العابرين حولي بأنني متشرد من طبقة الأخدام المهمشين، ولم يروني ناسكاً متأملا.

شعرت ذات يوم بالخمول والدوار يتسللان إلى جسدي، لدرجة أنني لا أقوى على الذهاب إلى الجبل. ألحيت على نجوى في اليوم الثالث أن تبقى معي أثناء تناول الأكل، فعرفتُ سبب خمولي من تفكرها، وهو أنها كانت تدسُّ لي الدواء في طعامي، بعد أن رفضتُ الذهاب إلى الطبيب النفساني، فلم أعد أتناول طعامي في البيت لفترة، إلى أن أجهشت يوماً بالبكاء وأقسمت أنها لن تضع الدواء خفية في طعامي.

ذات يوم عند عودتي مساءً من الجبل إلى منزلي، كنت أشاهد بعض سُكان الحي يبتسمون شماتة فيّ، يتهامسون: "لقد ساءت حالته" "أني أرثي لحال أسرته، مَن سيتزوج بنات رجل مجنون؟ كان رجل طيب...!".

كثيراً ما رغبتُ أن أصفعهم، أو أقذفهم بالأحجار. لكنني وجدت سلوكي هذا سيكون دليلاً على جنوني حقّاً. وهذا ما جعلني أبلع غضبي غُصةً وازداد الكبت يثقل كاهلي، وازدادت قرحة المعدة تؤلمني. كنت أسمع الأصوات المنخفضة ليلاً، التي تدور في منازل الحي، منها ما يخدش الحياء ومنها ما يضحك. وصارت أسرار الجيران تتدفق إليّ كجبل ثقيل يرزح على صدري؛ لهذا رحت أحشو السدادة بقوة في إذني، أمّا الرعد كان يكاد يمزق أذني.

أصبحتُ لا أجد متعة النوم في البيت، وأجده أفضل في الجبل، لا أسمع إلا هبوب النسيم، حفيف الشجر، زحف بعض السحالي، ودوياً لا أدري مصدره آتياً من الفضاء تعوّدت عليه.

* ٢٠ *

كثيرة هي المآسي التي تطفو على السطح، لكن الأسوأ هي أن يسود الجهل على ما سِواه في المجتمع. كنت في الجبل ذات يوم أنظر إلى الأفق البعيد، مستمتعاً بألوان أشعة الشمس الغاربة. فجأة ظهر أمامي شخص كأنه تكثف من الهواء أو هكذا رأيت. كان يلبس ثوباً مقلّماً يبدو جديداً، يسدل شعره على كتفيه، بيده عصا غريبة، ظننته راعياً جاء فجأة، اقترب نحوي. نظر إليّ دون أن يتحدّث. رحّبت به:

– أهلاً وسهلاً، تفضل بالجلوس.

ابتسم الزائر ثم قال: عفواً، السلام عليكم. لمّا صافحني أحسست بصقيع في يده كالثلج، سحبتها بخفة! جلس أمام كوخي وأنا متعجباً منه، نفذ بصري إلى جسده رأيته لا يشبه هيكلنا، ليس له عضو ذكري ولا شرج. قلت لنفسي "ما هذا ببشر! " كان صوته يجول في رأسي دون أن يفتح فمه: أنا كما فكّرت فيه. حدّثت نفسي" إنه يقرأ أفكاري، ترى هل سيبطش بي؟" تبسم وسمعت صوته: لا تخف مني، أنا من كوكب مسالم في هذه المجرة، لا مكان للشرور فيه. نحن نرقبكم منذ زمن طويل. بدأت أستجمع شجاعتي، قلتُ له:

– أنت إذا رجل فضاء!، كيف عرفت لُغتي؟ تغلغل صوته في سمعي: نحن ننسخ ذاكرة المرء ثم نتحدثُ بلغُته.

– بهذه السرعة!

فكان جوابه مدهشاً:

– نعم، نسخت ذاكرتك كلها منذ طفولتك، فأنا الآن أعرف كل حياتك الماضية، يمكنني أن أتقمص شخصيتك وأصبح عبد الفتاح سعيد، ولن يشك بي أحد، حتى زوجتك نجوى.

– ياه، كيف عرفت حتى اسم زوجتي؟ رد بطريقته: ألم أقل لك أنني نسخت ذاكرتك. أنت اجتزت طوراً جديداً من مراحل التطور البشرية، وحواسك لا تصلح لهذا الزمان، الذي سوف يصل إليه كل البشر يوماً ما عندما يكونون أهلاً لذلك. أيقنت أن ما يقوله صحيح فالناس لا تتقبل ما هو غريب عن المجتمع وتنكره وهذا ما حدث لي. سألته.

– وما هي لغتكم؟ كان جوابه محيّراً: ليس لدينا لغة نتحدث بها، نحن نتبادل الحديث بالتخاطر الذهني، ليس لدينا ألسنة مثلكم –فتح فمه فرأيت لسان عصفور– وراح يقول: كان لدينا ألسن مثلكم قبل ملايين السنين، لكنها انكمشت مع مرور الزمن، بعد أن أصبح لنا القدرة على استخدام طاقة عقولنا بشكل أكبر. نحن نتكاثر بالتبرعم في سن الشباب ويولد الواحد منّا شاباً، تطورنا من أصل بكتيري، نتشكل ونتكيّف كما نشاء. نحن جنس واحد لا وجود للذكورة والأنوثة في عالمنا كالفطريات في أرضكم". نراقبكم عن كثب، ونجري بعض

التجارب على بعضكم دون أن تشعرون. وأنت أكثرهم أهمية لنا في هذه الفترة.

كانت أول زيارة لنا إلى الأرض، وأنتم بشكلكم البدائي قبل ثلاثة مليون سنة من سنوات الأرض. فكرتُ لحظة "ممكن يكون هذا الذي أتحدث معه جِنّي" فرأيت وجهه قد تلّون بلون لم أعهدها في حياتي، خفت منه، فافترى عن اسنانه وقال: لا تخف، هكذا هو ضحكنا فحديثك عن الجن أضحكني، فنحن الذين نظهر ونختفي عن الأنظار؛ لهذا يظن البشر أن هناك جن في الأرض.

دهشت من قوله لكنني رحت أسأله: لماذا تزورون الأرض؟ رد قائلا: نبحث عن الذهب لصناعتنا، ونقوم بتجارب عديدة على الأرض. سألته:

– كيف تخلصتم من الشرور؟

– كانت هناك شرور في عهودنا القديمة، إلى أن اجتزنا أطواراً عديدة من مراحل حياتنا وتخلصنا من الشر في نفوسنا، وهكذا أنتم بعد أن تجتازون أطواراً أخرى في الإنسانية، وتستخدمون أكبر قدر من عقولكم عندها ستتخلصون من الشرور والعصبية وتزول أسباب الاختلافات بينكم، وكذلك الحدود والفوارق والطبقات بينكم عندئذ ستعيشون في محبة وسلام. ثم أخبرني عن حدث عظيم وهو: أن هناك كوكب عملاق، يمر كل مليون وعشرين سنة بجوار المجموعة الشمسية، وحدد الفترة الزمنية التي سيمر فيها مرة أخرى. جاذبيته قوية سيعكس دوران المجموعة كلها ومنها الأرض ثم يمضي بعيداً عنها،

وسيكون الشرق غرباً والغرب شرقاً في الأرض، حتى يتلاشى تأثيره ثم يعود دوران المجموعة الشمسية إلى حالتها الطبيعية. كنت أنصت وفمي مفتوح من الدهشة، وأخذت اسأله عمّا إذا أختلّ توازن الكون، تغير لونه غير اللون السابق، لون مخيف. عرفت أنه غضب وقال بصوت مرتجف: ستتصادم الكواكب والنجوم معاً ويتحول إلى سديم وينكمش الكون ثم يتكون كون آخر غير هذا الكون الحالي وهكذا يضل الكون أزلياً بين تمدد وانكماش.

فكرتُ" تُرى ماذا لو طلبت زيارة عالمهم؟ لأرى المجهول...!". تشكّلت علامة ابتسامة مشرقة في وجهه، وأشار: حقاً أتريد أن تزور عالمنا؟ سآخذك إلى رحلة كونية إن شئت. فرحت كثيراً لأعرف المجهول عن البشر، ولو مِتُّ في سبيل المعرفة. قلت بفرح:

– نعم، أريد! مد يده الشمال ووضعها على رأسي وهو يُحدّق في عينيي فأشار إليّ أن أنظر في عينيه. إذ بي أرى عينيه وقد اتسعت إلى ما لا نهاية شاهدت كوكباً غريب الأطوار، بعيداً عن خيال الإنسان، معظم ما فيه معلّق في الهواء. ورحتُ أطوف كأنني جزء من ذلك الكوكب البارد، ونسيت أنني من أهل الأرض. شاهدت أشياء كثيرة غريبة يصعب عليّ وصفها. لم أدر كم من الوقت أخذت مني تلك الرحلة الخارقة للطبيعة البشرية، كنت أرى نفسي أُحلّق في فضاء الكوكب وأنا أفرد يديا كأجنحة الطيور... في نهاية رحلتي الغريبة، وجدت نفسي أقف في مكاني أمام كوخي، لم أتزحزح منه قيد أنملة،

ويديّ مبسوطتين في الجو في وضع الطيران وقد اختفى الكائن الغريب، وجسمي بارد على غير عادته.

* ٢١ *

وأنا عائد إلى منزلي ظهرا، دارت في رأسي تساؤلات كثيرة "هل ما سمعته وشاهدته كان حلما؟ هل كنت أتخيل، وصَدقَ الناس بما وصموني به من جنون، هل أخبر الحي بما قاله رجل الفضاء عن زمن شروق الشمس من المغرب وغروبها من المشرق؟ هذا سَبقٌ علمي قد يكون كشفاً من الله. أقنعت نفسي إنه كشف من الله، يختص به مَن يشاء من عباده وليقولوا عني ما يشاءون، مجنون أو غير ذلك... وصلتُ إلى الحي جذلاً عند الغروب، وجدت أمامي بعضَ سكان الحي هم: عبد الرحيم، عبد القوي، وماجد ابن الجيران. فرحت بلقائهم وقلت لهم ببهجة:

– سأنقل لكم خبراً عظيماً، سيتحدّث عنه العالم كله–أتلعوا برؤوسهم نحوي–كنت في منتزه جبل عطان قبل قليل، وفيما أنا هناك جاءني رجل فضاء. في البداية خفت منه، وحينما نظر إليّ مبتسماً أزاح الخوف عني. حدّثني عن أشياء غير معروفة للبشر... وعن الزمن الذي ستشرق الشمس فيه من المغرب وتغرب من المشرق، ثم أخذني في رحلة إلى السماء وشاهدت كوكبه...

كنت أتحدث وكُلي حماس ويديّ تشير إلى هول الحدث. أحاطني عدد من سكان الحي وسرت أعيد لهم الخبر مرة أخرى، وهم ينظرون

غير مصدقين ما أقوله. كنت أرمق الدهشة في عيون البعض والأسف في عيون البعض الآخر، وألمح في بعضهم البسمة الساخرة واقرأ أفكارهم السلبية. تفرقوا وهم يشيرون إلى بعضهم بتطور حالة الجنون عندي. دخلت بيتي منكسراً، ظننت أن أحد منهم سيصدقني، لم أغضب منهم فأنا معتاد على سخريتهم.

بعد صلاة العصر أقبل ماجد، ومعه رجال، يقودهم رجل في الأربعين من العمر، ذو لحية كثة. نادوني بصوت مرتفع لأخرج إليهم. عرفت أن ماجد هو من أحضرهم؛ فهو يكرهني. وقف أمامي ذو اللحية وهو يمسدها وهو ينظر إلى الأرض قال:

– أصحيح أنك تدّعي النبوة؟ تفاجأت من سؤاله الغريب وقلت بخوف:

– أعوذ بالله، من قال لكم ذلك؟!

– ألم تُقل إن ملكاً نزل عليك من السماء؟، وأخبرك بموعد شروق الشمس من الغرب وغروبها من الشرق، وهذا حدث لا يعلمه إلا الله!

– أنا لم أقل ذلك، بل كائن فضائي...مسح الرجل لحيته وقال:

– وتقول إنه عُرج بك إلى السماوات العُلى؟، مثل نبينا محمد (ص) ثم أخذ يشير بسبابة نحوي وعيناه المخيفة تحدقان بي بقسوة، وقال يهددني: عُد إلى رشدك يا هذا، ولا تقُل مالم يقُلْه رسول الله، لا تجعل شيطانك يقودك إلى الكُفر! سنمهلك ثلاثة أيام لتتوب إلى الله وتعود إلى رشدك وإلا... شعرت بغضب يجتاحني" كيف يكفّرني وأنا مؤمنا بالله"! قلت بصوت عال فيه الكثير من الحدة:

– وإلا ماذا... أستقتلونني! مَن أنت حتى تكفّر الناس؟ وانفجرت فيني قنبلة الكبت الموقوتة، لتلتهم مَن حولي. صرخت:

– أنا لست كافراً أو مجنوناً أيها العريان، أنت ومَن حولك عرايا –وأنا أشير بأصبعي نحوهم– أراكم عرايا، عريا... أعرف ماذا تلبس تحت هذا الثوب الأبيض: سروال قصير مثقوب، فانيلا فيها بقعة أحمر شفاه، فيك شامة سوداء أسفل بطنك، وعانتك التي لم تحلقها... اتسعت عينيّ الملتحي، وعاد إلى الخلف كفأر يرى الموت أمامه، بعد أن كان أسداً يقف أمامي، يضع كفيّه على منطقته الحساسة، وهو يقول:

– أعوذ بالله... هذا شيطان، شيطان رجيم!

تراجع إلى الخلف وابتعد عني، ثم صِحتُ على ماجد:

– وأنت يا سارق، أعرف أنك حاولت سرقة منزلي في العيد، لماذا جعلت لعانتك زنانير في الأطراف؟، وفيك خدش في خاصرتك... وأنت يا سلّام علي، فيك شامة على ظهرك، وأنت يا محمد، لماذا لم تغسل ملابسك الداخلية جيداً ؟، وأنت يا راجح، تخفي كيس "الشمة" في جيب سروالك الداخلي، وفيك أثر جُرح في كتفك الأيسر... إنني أراكم عرايا منذ زمن وأنا أعرف أسراركم. اذهبوا وأزيلوا أقنعة الزيف من على وجوهكم. ماذا تريدون مني يا عرايا، اذهبوا عني بعيداً يا عُراة.

* ٢٢ *

انصرف الجمع المحتشد من حولي وهم يعودون إلى الوراء، يضعون كفوفهم على مناطقهم الحساسة، منهم في الأمام ومنهم في الخلف، يستعيذون بالله مني ...كأنني شيطان رجيم. دخلت بيتي كأنني أطير في الهواء، بعد أن أزحت حملاً ثقيلا من الكبت عن صدري. سألتني ابنتي "نجاة" والبهجة في عينيها:

– كيف استطعت أن تفرّق الناس يا أبي من حولك مذعورين؟، كنا نخاف أن يبطشوا بك ارتعبنا خوفاً عليك! تمنّينا من الله يا أبي لو كان لنا أخوة، يقفون معك مثل هذه المواقف.

أمّا نجوى فقد ظلت تراقب الناس ثم أتت تخبرنا بما سمعت من حوار:

– كيف يرانا عرايا هذا المجنون؟! لقد هرب "المطوّع" خوفاً من عبد الفتاح، هههه ..

– إذا عبد الفتاح كان مُحقّاً فيما قاله عنه، وإلا لمَا خاف... هههههه ونحن أيضا كيف رأى ما تستره ثيابنا. هل أصبح سوبرمان، أم شيطان؟ ثم قال أحدهم:

– يا جماعة، الجن حقُّه يخبروه، هل نسيتم أن معه جن؟

سألتني نجاة بخجل:

– هل صحيح ترى الناس عرايا يا أبي؟!

– لا يا ابنتي، بل كنتُ أقرأ ما يفكرون به وأهددهم. وضعت نجوى يدها على خدها وأخذ تُحدّث نفسها بندم "عرفت الآن يا عبد الفتاح

أنـك لسـت مجنونـاً، لـم تشـأ أن تخبـر بناتـك أنـك تشـاهدهن عريـا، إنـك رجـل مختلـف ولـديك مواهـب، لـم يعـد عنـدي شـك فـي ذلـك" لكـن نظرتهـا تلك كانت بعد فوات الأوان....

*** ٢٣ ***

فـي السـاعة التاسـعة صـباحاً، سـمعت طرقـاً قويـاً علـى البـاب. حينمـا فتحـتُ فاجـأني رجـلان يرتـديان دجـلات بيضـاء وشـداني نحوهمـا سـريعاً وكتفـاني وأنـا فـي ثيـابي الداخليـة فقـط، حـافي القـدمين وقـاداني إلـى سـيارة إسـعاف. رأيـت بعـض سـكان الحـي، كانـت عيـونهم ترشـقني بسـهام السخرية، يقولون:

– تريد أن تكون نبيّاً؟ هههه

– نزلَ عليك الوحي يا عبد الفتاح؟

– مَن انزل عليك الوحي، جبريل وإلا الشيطان؟ هههه

قال ماجد:

– مكانك المصحة يا عبد الفتاح، بين المجانين... ترانا لصوصاً

.....

.....

الفصل الرابع

قاع المتاهة

(تتشـكّل الوحـوش الضـارية أشـكالاً متعـددة كبكتريـا عملاقــة؛ لتلــتهم مــا حولهــا. لهــا أجنحــة ضــخمة لكنها لا تستطيع الطيران)

* ١ *

كنت أظن أن السيارة التي تقلّنا متجهة إلى المصحة النفسية، ولم أتوقّع أنها تتجه نحو مصحة السجن المركزي، المخصصة بالمجانين المشردين... مازال يوم دخولي هذه المصحة العقلية وشماً في ذاكرتي، وأنا أسأل مدير المصحة بغضب:

– لماذا أحضرتموني إلى هنا، أنا لَست مجنونا؟ أجبروني على الاستلقاء فوق سرير الفحص، وكان بجوار المدير طبيب آخر. بدأ المدير يسألني كأنه يُحقق معي، ومن ضمن أسئلته كانت:

– ألا ترى نفسك: بطلاً، زعيماً، نبيّاً؟

– لا، بل أرى نفسي منبوذاً.

قدّم لي العديد من الرسومات الغامضة، أجبتُ عن أشكالها قائلاً: هذه شجرة. هذه سمكة. هذا فيل. هذه امرأة....

توقف المدير عن طرح أسئلته وهو يراقبني خِلسة، يحدّث نفسه: "لا يعاني من شيء، كيف أدخله المصحة وبأي تشخيص، لكنها الأوامر" كتب التشخيص. قرأت أفكاره وهو يكتب

(Acute Narcissism). وكان العلاج:

1- Haldol 50mg inj، أسبوعية.

2- stlabid25mg tab ثلاثة أقراص في اليوم

3- diazepam10mg tab قرص مساءً، اضافة إلى ذلك جلستين كهرباء، وأمر بإرسالي إلى قسم العُصاب. وعندما أعترض الطبيب على الجلستين الكهربائية، نهره المدير وقال له: "أنت مازلت تحت التمرين يا وائل". ثم أشار المدير إلى رجلين أشداء بأن يأخذاني وأنا أصرخ:

- يا جبناء، أنا لست مجنوناً، يا كلاب، يا عُراة، يا أولاد .... لماذا تسجنونني مع المجانين، خذوني إلى سجن آخر غير هذا!

أخذوني إلى غرفة منعزلة فيها سرير فرشه ممزق بها حمّام صغير، ثم أغلقا الباب عليّ.

بعد نصف ساعة حضر الرجلان، وألبساني قميصاً أبيضاً وأخذاني عبر ممر طويل وأنا أقاومهم. قادوني إلى غرفة غريبة، رأيت هناك شبه تاج من حديد قبل وضعه حول رأسي، ثم ثبتوا فيه أقطاب

كهربائية ووضعوا في فمي قطعة بلاستيكية ككعب حذاء. فجأة شعرت أن ثعباناً ابتلعني دفعة واحدة، وهو يرتجف بشدة كالمصروع. لم أشعر متى أعادوني إلى الغرفة. بقيت فترة في غرفتي أو زنزانتي مشوش الذهن، إلى أن عاد إليّ وعيي وتذكّرت مَن أنا.

نزعت السدادة عن إذني فلم أعد أسمع إلا الأصوات العادية. وهكذا في الجلسة الأولى، فقدتُ قدراتي الفوق سمعية. قلتُ في نفسي هذا جيد لي، فقد كنتُ أسمع ما يؤرقني وما يجب ألا أسمعه.

في اليوم الثاني ظهرا حضر الرجلان؛ لأخذي إلى جلسة كهربائية أخرى. لم أقاومهم فقواي كانت منهارة لا أقوى حتى على الكلام. وهكذا في الجلسة الثانية فقدتُ القُدرة على رؤية الأشياء المخفية والمستورة، لم يعد بصري ينفذ من خلال الأشياء ولم أعد أرى الناس عرايا. قلت الحمد لله لقد كنت أرى عيوب البشر المستورة.

* ٢ *

في صباح اليوم الثالث، حضر طبيب وحقنني في العضل حقنة مؤلمة، ثم نُقلتُ إلى الدور الثاني غرفة واسعة رقم ٢١. وجدت هناك أربعة عشر سريراً، والمكان نظيف، إلا من بعض الكلمات المحفورة في الجدار...كان المرضى يراقبونني وهم يتلعون ببصرهم نحوي، إلا واحداً منهم كان يُصلّي إلى جهة أخرى غير مكة المكرمة. عرفتُ فيما بعد أنه يتوجّه بصلاته نحو القُدس.

أخذتُ مكاني في الزاوية الأخيرة، سرير رقم ١٤، تحت نافذة أنظر منها إلى الساحة، التي يراها المرضى منتجعهم في هذا المنفى البعيد عن مسرح الحياة. صار رقمي ٢١/١٤على ثوبي الرمادي الذي ألبسوني إيّاها. بعد خروج الممرضين من الغرفة، فجأة نهض المرضى نهضة رجل واحد، يتقدمون نحوي ببطء، معقوفين للأمام قليلاً ينظرون إليّ بصمت لدرجة الرعب، وبدأ التحقيق الجنوني معي من قِبل أحدهم، يسمونه "النبي" بعد أن أنهى صلاته. خفتُ منهم انزويت في سريري.

كان الملقب بالنبي يمشي أمامي بوقارٍ ذهاباً وإياباً على طول الغرفة، ثم ألتفت نحوي فجأة وهو يشير بسبابته نحوي:

س: ما اسمك؟

– عبد الفتاح سعيد.

هتف بغضب وسبابته ما تزال موجّهة نحوي، وعيناه تُحدقان في وجهي:

– غلط... هنا نُنادى بأسماء أمهاتنا. ألم تسمع أن يوم القيامة ينادون البشر بأسماء أمهاتهم؟ وأشار إلى نفسه وقال: أنا اسمي عيسى ابن مريم ثم أشار إلى شخص آخر، وذاك ناجي ابن زينب، وذاك ثابت ابن سعيدة... نحن هنا أعدنا الحق لأصحابه في الدنيا. أليس الأمهات هُنَّ الأحق بنسب الأبناء إليهن؟ ثم هتف:

– من يلد الإنسان يا رفاق؟ فأجبوه بصوت واحد:

– النساء يا نبي.

من يرضع الأطفال؟

– النساء

من يعتني بالأطفال؟

– النساء

– إذاً بأي حق ينسب المولود لغير مَن يقوم بكل ذلك. ثم قال وهو يفرد يديه في الهواء:

– والآن يا عبد الفتاح، ما هو اسم أمك الجمييييل؟

– اسمها زعفران.

ابتسم وهو يفرد ذراعيه كمن يرحب بي.

– هاااا، هذا هو اسمك الحقيقي: "عبد الفتاح بن زعفران" يا له من اسم جميل–رفرف بيديه في الهواء–اسم موسقي رائع، وكتب في الهواء عبد الفتاح بن زعفرااان. هذا هو اسمك في مملكتنا، أنت الآن واحد من حواريي، لقد قبلتك. فجأة ضرب بقبضته اليمنى سريراً بجانبه، وعاد يسألني وهو يمشي في الغرفة ذهاباً وإياباً.

– من أين أخذوك؟

– انتزعوني من بين أطفالي.

– نعم، تبدو عليك النظافة، لَست متشرداً. وضع كفه في ذقنه وقال:

– كم حكموا عليك في السجن هنا؟

– وهل أنا في سجن؟!

–هههه... ألم تدر هههه، هذا المستشفى داخل سجن كبير. فيه المُثقف والسياسي والمخفي تحت الأرض... قلت لنفسي الحمد لله أنني مازلتُ فوق الأرض. قرب نحوي ثم همس:

– هل لديك سيجارة؟

–لا

– قات؟

– لا

– لا، لا...

رفع صوته:

– هذا غير معقول، تظهر عليك النعمة والثراء ولم يُهرّبوا لك أهلك هذه الأشياء، يا ابن، يا ابن. هتف: ما هو اسم أمّه؟ رد الجميع بصوت واحد:

– زعفران يا نبي.

– شكراً يا حواريي المخلصين، شكراً

ابتسم ويضع كفه الأيمن على صدره ثم ألتفت نحوي يقول بوقار:

– يا ابن زعفران، أخبر أهلك أن يحضروا لنا لحم، فنحن لا نجده هنا. قُلت له:

– يا عيسى، أنا لا أمضغ القات ولا آكل اللحوم.

أندهش واتسعت عيناه وكذلك المرضى. قال:

– ماذا، ماذا؟ لا قات ولا لحمة.

ضحك الجميع. "كاع، كاع، كاع كيع، كيع، كيع، كاع" صاح فيهم عيسى:

– اصمتوا يا حواريي، هذا رجل غريب الأطوار ثم أخذ يحاورني:

–هل أنت يمني!

– نعم، يمني. أشار بسبابته نحوي:

– لا أصدّق. أنت كاذب.

صمت قليلاً ثم قال:

– هل تعرف ما هو شعار بلادنا؟

– الله، الوطن، الثورة.

أبتهج كأنه أكتشف أمراً مهماً وقال:

– ها، أنت لست يمني، هذا ليس شعارنا –وهو يبتسم كمنتصر–أنت لا تعرف شعار بلادنا "القات، اللحمة، الفيد[19]" الآن عرفتُ لماذا سجنوك. أنت جاسوس على بلادنا، يا بن، يا بن...وسار يصيح: نسيت اسم أم هذا الجاسوس.

– زعفران يا نبي، زعفران.

*** ٣ ***

[19] النهب

قبل الظهيرة دقّ جرس الفُسحة ؛ فخرجوا يهرولون إلى الساحة. حمدتُ الله على سلامتي منهم. جلست أراقبهم. وأقول لنفسي "هذا هو عالمك الجديد يا عبد الفتاح، مكافأتك على مواهبك".

ذهبت اتأملهم فتذكّرت مقامة أبي القاسم الحضرمي، حين وصف مجانين زمانه قائلاً {لباسهم أسمال، شعرهم أدغال، مَن فقد حواسه، وتخلّى عن لباسه، لا يشعر بالحر ولا بالصرِّ، يبثون ما في القلوب، لا يدرون ما العيوب. أظافرهم مخالب النمور، لحاءهم عُش الطيور. رائحتهم من روائح النسور، مساكنهم الأزقة والجحور. حديث بعضهم غزير، لا يُفهم سوى النزير، البعض صامت لا يحَكي، لا يعرف الشكاء فيشكي. مَنهم يمشي كالزعيم، أو السيد الحكيم. البعض يحيا على القذارة، وسلاحه الشتم والحجارة. يحكون بالصراخ وتارة بالهمس، ظِلالهم تحت حر الشمس. يفترشون الأرض ويلتحفون السماء، ويضحكون كالبكاء والسرور كالعناء. منهم يرمح كالحمار، أو ينطح كالأثوار، وبعضهم في أول الأطوار. يخطف اللُقمة كالسعدان، ومن هو دائماً سرحان، تقف اللقمة ساعة على البنان. مَن يغرف الماء بالغربال، ويلعب كالأطفال، ومَن يحي في الأطلال، يعيش والسباع، بعضهم يتيه في الرِّجاع. طعامهم ما جاده قلبُ الزمان، نومهم أفضل مِنِ نوم السلطان، لا يحسبون لوقتهم أي حساب، ولا يُؤاخذون بالعتاب، لا يدرون ما الحاضر أو الماضي، وليس عليهم حُكم قاضي...}.

* ٤ *

بعد أسبوع سمحوا للأهل بزيارتي. بكت نجوى وكذلك بناتي وبكيت أنا لبكائهم. قلتُ لها ألا تخشى على ممتلكات بناتها، فقبل دخولي هنا سجلتُ ممتلكاتي لهن جمعياً والسجلات لدى المحامي محمد سعد العبسي. عندئذ فكرت نجوى "لقد نسى نصيبي". ابتسمتُ وقلت لها: لا لم أنساك فأنتِ الوصي عليهن. أنتهى وقت الزيارة وعدت إلى غرفتي وعيسى ينهي صلاته دون تسليم، ثم استلقى على سريره، وراح ينظر نحو سطح الغرفة بصمت، وكان هناك ثمة هدوء في الغرفة بعد أن تناول المرضى جرعتهم المعتادة. وجدت نفسي أنني أقرأ عقله الباطن. غصتُ في ذاكرته، ووجدتها كتاباً مفتوحاً لي. يا للغرابة ماذا حدث لي، شعرت أن مقدرتي اجتازت طوراً جديداً في قراءة الأفكار. كنت في السابق أقرأ ما يدور في ذهن المرء، حين يفكّر فقط. أتُرى هل الشحنات الكهربائية التي تعرضتُ لها أثناء الجلستين جعلتني أنسخ ذاكرة المرء؟! كما نسخ ذاكرتي الكائن الفضائي الذي رأيته حين كنت معتزلاً في الجبل، أو ذلك الكائن زودني بهذه الخاصية. تناولت جرعة الدواء ورحت أغط في النوم حتى الصباح، بعد أن عرفت ما يعانيه عيسى.

مر الأطباء علينا في الساعة العاشرة قبل الظهيرة، ثم خرجنا إلى الساحة، وقفت بجانب عيسى وهو يقف بشموخ ينظر نحو السماء. ناديته ولم يسمعني. سمعته يقول:

– ألا تسمع؟

– ماذا أسمع!

– أنهم يدعونني من السماء...

ضحكتُ من هلوسته. قلت له:

– وأنا لَستُ من هذا العالم يا عيسى.

ألتفت نحوي:

– أنت ملاك إذن، أتيت لترفعني إلى السماء؟

– لا، لست ملاكاً.

– إذا أنت جني، وذهب يضحك بجنون: كع،كع، كيع، كيع، كاع. بعد أن توقف عن الضحك، قلت له:

– أنا أعرف عنك، ما لم تعرفه أنت عن نفسك. التفت يُحدّق بي ويداه مبسوطتان بتحدٍ:

– ماذا تعرف عني، وأنا لم أشاهدك يوماً في حياتي إلا هنا؟، يا ابن يا ابن.... آه، نسيت ولطم ناصيته.

– زعفرااان يا عيسى ثم فاجأته وقلت له:

–أليس اسم أمّك "تقيّة" وليست مريم كما أخترتهُ أنت لنفسك؟ رمقني بنظرة حادة ثم أضفت: قيل لك أنك مجهول الأب، وأن أخوالك قتلوا أمك بعد ولادتك غسلاً للعار. كان ينصت والدهشة في عينيه وكفّه على جبينه. يحدث نفسه "ما أدرا هذا الجِنّي بكل هذا، أظنه يعرفني؟". ثم أضفتُ وأنا ابتسم:

– أنا لست جنيّاً ولا أعرفك. أنتبه كمن لدغته عقرب، وقال لنفسه: "كيف عرف ما في نفسي؟ كل ما قاله صحيح" وهكذا حدثته كثيراً إلى أن صدّقني فيما قلت لهُ فيما بعد. أخبرته أن أمّه طاهرة تزوجت أباه سراً؛ لأن أخواله رفضوا تزويجه بسبب الأعراف فأبوه يعمل جزاراً، وحين التحق مع اللجان الثورية لدفاع عن الثورة مات وهو يدافع عنها، وعليه أن يفتخر بأنه ابن شهيد. سار يحدث نفسه والبهجة في عينيه، يقلّب كفّيه:

" إذاً أنا لديّ أب معروف، لست مجهول الأب، لست "زنوة" كما يقال لي". صمت قليلاً، ثم عاد يُحدثني وعيناه مغرورقتان بالدمع:

–لم يعد يهمني كيف عرفت كل هذا عني وأخذ يحكي قصته: حينما كنت طفلاً في السادسة من العمر، كان الأطفال ينادونني يا زنوة... تخيّل كيف تعيش موصوماً بهذا العار. آه، كم كانت هذه الكلمة تعذبني! "من أبوك يا ابن الزانية؟" عندما كنت أتشاجر مع الأولاد أقول لهم: أنا كعيسى ابن مريم، خلقتُ مثله من دون أب وأرميهم بالحجارة. كنت أسأل جدتي التي ربتني: مَن أبي يا جدة؟ فتقول لي أبوك مات وكفى. كنت أنام وأنا أفكر، كيف سأعيش وهذا العار والاحتقار يلاحقني، والظلم الذي ينصب على رأسي مثل الحِمم. إلى أن حلمتُ يوماً برجل عملاق، يلبس لباساً أخضر، قال لي: السلام عليك يا نبي الله عيسى، وتكرر هذا الحلم وأخفيت هذا على الكل؛ حتى لا يسخرون مني أكثر. ذات يوم سألت نفسي: قد أكون فعلاً نبي مثل عيسى ابن مريم، الداعي للمحبة والسلام. كنت أسمع مَن

يقول لي: أنت نبي ... أسمعها كثيراً حتى في منامي، وكنت قد علمت أن النبي عيسى سيعود إلى للأرض مرة أخرى. استمريت في اعتقادي هذا إلى أن خرجت يوماً أمشي شامخاً دون أن أبالي بكلام الناس، وذهبت أهتف: أنا النبي عيسى...كان الأطفال يرمونني بالأحجار وأدموا رأسي والناس من حولي تضحك، قلتُ في نفسي "هذا ما يجري للأنبياء". مرت سيارة الشرطة والأطفال يرمونني بالحجارة فأخذوني بعد ذلك وأوصلوني إلى هنا.

بكى عيسى في الساحة كثيراً، شعرت أنه كان يفرغ شحنات مكبوتة من أعماقه، وحين دخل الغرفة وهو يبكي تعجب المرضى، فسألوه:

– ما أبكاك يا نبي؟ قال لهم:

– أنا ابن شهيد ضحى من أجل أن يحيا الآخرون وأمي طاهرة، لم يعرف الأطباء معاناتي. سأذهب إلى قبر الجندي المجهول أقبّله. أنا لست نبيًّا...

نظر المرضى إليه بغرابة، وقالوا:

– يعني أنت مُش(ليس) نبي؟

– لا، سامحوني.

– كنت تكذب يا مُسيلمة، ثم ضحكوا: كيع كيع كيع، كاع كاع...

أصبح عيسى صديقي، عرّفني قبل خروجه من المصحة بمُعظم مرضاها. هذا يلقب بالفيلسوف وهذا بالمهلوس.... وكم زمن بقي البعض فيها، ومن يعود إليها بعد خروجه، ولم يذكر لي كم سنة

قضاها هو في المصحة. خرج عيسى وهو يشكرني، بعد أن شفيّ من صراعه مع ذاته التي دافعت عن نقصها بالنرجسية، حسب رأي الأطباء.

* ٥ *

حضرت نجوى لزيارتي مرة أخرى، وقبل ذهابها طلبتُ منها أوراقاً وأقلاماً، لأدوّن ما مرّت عليّ من أحداث وكذا رحلتي في النفس البشرية. كانت الحياة مع هؤلاء المرضى معاناة أخرى كنت أحس أن معاناتهم تتسلل إليّ، ومن حُسن حظّي أنني أُودِعتُ مكاناً بين مرضى ليسوا من ذوي الحالات الخطرة.

في زيارة نجوى الثالثة أحضرت لي ما طلبته منها، وحضر أيضاً بعض أهلي. كانت والدتي تطمئنني أن أخي صالح سيهتم ببناتي وشؤوني إلى أن أشفى ودعت لي بالشفاء. قلت لها:

– إن زوجتي نجوى قادرة على تدبير شؤون البيت، وبناتي في الجامعة لا خوف على مستقبلهن. قرأت في إحدى الإخوة ما لا يرضيني.

شاهدني المرضى يوماً وأنا أكتب. فرحوا حين أخبرتهم: إنني أكتب حكاياتهم للعالم. حين أتت نجوى في زيارتها المعتادة لي، أعطيتها ما كتبته من أحداث تذكرتها من سيرة حياتي الماضية، وأوصيتها ألا يطّلع عليها أحد. تلك الأحداث التي كتبتها لست أدري أكانت خيالاً أم جنوناً ما زلتُ أعيشه، أم الطبيعة فتحت لي بابها لأعرف أكثر من

اللازم. ما كان يوقفني عن الكتابة، هي تلك الحُقنة التي يحقنوني بها الأطباء كل يوم خميس، حيث أظل يومين في حالة من الخمول، ثم يخف مفعولها بالتدريج. أما الأقراص التي كانت تُعطى لي يومياً في المساء، كنت أخدعهم بأخذها أضعها تحت لساني ثم أبصقها خِلسة؛ فقد كان الممرضون حريصون على أن يعطونا الأقراص إلى الفم مباشرة.

لما أكملتُ تدوين ما خطّته يد الأيام في صفحات ذاكرتي؛ بدأت أكتب أحداثي اليومية.

* ٦ *

في هذا اليوم أُدخل شاب إلى غرفتنا، عمره ثلاثون عاماً، ملابسه متسخة، شعره كثاً، أظافره كالمخالب، لحيته طويلة، يهرول خطوتين إلى الأمام ثم يقف دقيقة ثم يهرول مرة أخرى وهو منحني قليلاً للأمام. خاف منه الملقب بالفرخ –حيث لكل مريض لقبه الخاص– وانزوى في سريره. قام المُلقب بالمهلوس يرحّب به وهو يبدي استغرابه:

– أهلاً بشريف، متى عُدت؟!

– قَب.. قَب.. قليل.

– كهرباء.. وإلا حُقنة؟

– حُق.. حُق.. حُقنة.

– قد كنت جالس عندنا قُلتَ الشوارع أفضل، حيث تجد القات.

قاده المهلوس إلى السرير الذي كان لعيسى وأجلسه عليه، فتكوّر شريف على السرير ونام. كان غطيطه يسمع إلى خارج الغرفة. خرج المرضى إلى الساحة في نزهتهم المُعتادة، إلا المُلقب بالفرخ ظل في السرير متكوراً كعصفور خائف وبقيت أنا معهما.

في اليوم الثاني خرجتُ معهم إلى الساحة وأنا أقود شريفاً وهو يتعثر في مشيته. كانت مشيته تضحكني، تشبه قفزات الكنغر والبسمة لا تفارق شفتيه، نظراته نحو الآخر ببلادة. جلس على مقعد ينظر إلى الأرض دون حراك يذكر وذهبتُ أنا أتمشى قليلاً في الساحة، فرأيت الملقب بالزعيم وهو يخطب هذه المرة خطبة دينية، دون أن يكون أمامه أحد، يلتفت يمنة ويسرة ويديه تتقاطع حول صدره. عدت إلى جوار شريف، لم يشعر بوجودي وهو ينكت التراب بعود صغير، يقول:

– مرتي ... مرتي (زوجتي)، أبي...أبي. عرفت أنه يعاني من كبت، لم يستطع البوح به عجزت لسانه عن الإفصاح به. تغلغلتُ في ذاكرته وعرفت مما يعاني منه. وجدته أمراً قبيحاً، يصعب على المرء البوح به. حاولت أن أخرجه من قهره المكبوت. قلتُ له:

– أنا أعرف يا شريف، أن لك زوجة حِلوه، اسمها "نسيم" ولك ولد منها، اسمه سامر –التفت نحوي وهو يبتسم ببلادة –هو ابنك، ليس من أحد غيرك، لا يجوز أن تشك بأبيك وقلت له بعضاً من أسراره المكبوتة. اتسعت عيناه متعجباً مما حدّثته عن حياته. لم يسألني

كيف عرفتُ عن حياته السرية، التي لم يبح به هو لأحدٍ. وراح يحدث نفسه:

" يا الله ...حُريب (مُخبرين) حتى في المصحة هنا موجودون؟" وتذكّر حين اقتاده رجال الأمن ليحققوا معه لاشتباههم به أنه يعمل جاسوساً لصالح جنوب اليمن. ثم ضحك بهوس، وفجأة تحول ضحكه إلى بكاء وقال:

– أنا رأيتهما معاً في الفراش...وقام يقفز كالكنغر والدمع يسيل من عينيه، وحين دخل الغرفة سأله الملقب بالمُهلوس:

– ها، وأنت مَن أبكاك يا شريف، هل مرتك(زوجتك) تزوجت غيرك؟ وضحك الباقون: كع، كع، كع... هكذا دخل علينا عيسى يبكي، ثم خرج من عندنا. اقتربتُ منه والدمع على خده. همستُ له: سامر ابنك أنت، حرام عليك أن تشكّ بالغير. عرفتُ أنه لم يصدقني فأدركت أن جرحه عميق في الروح، وجرح كهذا لا يندمل بسهولة، فهو جرح نازف في الذاكرة. ذهب إلى سريره وتظاهر بالنوم.

ظل شريف زمناً طويلاً يشكّ في أبيه، ذلك الرجل الذي يجلّه ويوقِّره. لم يسافر إلى القرية قَط منذُ أن شكّ بهما هو وزجته. في اليوم الثالث بدأ يمشي معتدل القامة. سألته:

– هل قُلتُ لك الحقيقة؟ نظر إليّ بجديّة ولم يعد يضحك كما كان سابقاً، وقال بثقة:

– ما جعلني أصدّقك أنك عرفت ما أعانيه، وأشياء لم يعلم بها غيري، ما أدراك بهذا وأنا لم أخبر إنساناً قط في هذا الأمر، في البداية ظننت أنك مخبر مع الأمن...؟! لقد ازلت الغشاوة عن عيني، وتذكرت المشهد بين زوجتي وأبي، لم يكن كما رسمه لي عقلي أمامي. عشر من السنوات وأنا أتقلب على جمر الوهم. دمعت عيناه وهو يخبرني: لقد ازداد جنوني حين ولدت زوجتي ولداً، أسماه أبي سامر، لم أعترف به أبداً. ثم راح في صمت باكٍ... دمعت عيناه مرة أخرى ثم أردف قائلاً: حين كان أصحابي يباركون لي بميلاد سامر، كنت أهرب من سماع ذلك الخبر وأقول لهم "أنا ليس لدي زوجة ولا ولد". كنت أنام وأصحو على ذِكرى ما شاهدته بينهما، هجرت عملي في ورشة مكانيك سيارات. تشردت في الشوارع بملابسي القذرة. كنت التقط ما يتبقى من فتات الموائد في المطاعم، أكلت من القمامة. نمت على الرصيف مع الكلاب، شعرت بعطفهم أفضل من البشر. لا أدري لماذا نصف الإنسان بالكلب حينما نشتمه؟ ولا نصفه بالضبع أو الذئب... أليس الكلب وفياً للإنسان... كنت أحلم ليلاً أن زوجتي بين أحضان رجل آخر، تضحك معه وأنا مكبّلاً بالحبال أمامهما، أصحو من حلمي متوتراً وأنا العن زوجتي. هجرني النوم فصنعت منوماً لنفسي من بقايا العنب والفواكه. التي كنت ألتقطها من الأسواق، وأصبحت مدمناً على ذلك، ورحت ذات ليلة باردة أسقي الكلبة من شرابي التي اعتادت أن تنام بجواري. فشاهدتها تضحك بعد أن سكرنا معاً. كنت أحدثها كثيراً في الليل، أتخيل أنها تفهم ما أقول.

صمت شريف ولم يعد يبتسم ببلاهة كالسابق، وهو يشعر بالخزي من قصته. قادني فضولي لأساله، لماذا سجنه الأمن الوطني؟ حدّثني والخوف في عينيه وهو يتلفت يمنة ويسرة، ثم راح يهمس لي ولم يكن هناك أحد بالقرب منا: هُم الذين أدخلوني هنا أول مرة، هُم... هجمَ عليّ ثلاثة رجال فجأة، في ساعة متأخرة من الليل بسلاحهم، وأنا نائماً على الرصيف. كنت مرعوباً منهم حتى أنني بلّلت سروالي، وقادوني إلى مكان مجهول، خمنته تحت الأرض لم تكن هناك إضاءة إلا حين يأتون، حتى أنني كنت أكل طعامي في الظلام. كنت أسمع أنيناً في غرف مجاورة وهم يُحقّقون معي، يظنون أنني جاسوساً مع الجنوب ادّعي الجنون. لم أدر ما كنتُ أقوله لهم وكم أياماً بقيت تحت التحقيق والرعب.

خرج شريف من المصحة سعيداً، ولم يعد إليها ثانية، وقد كان يعود إليها سابقاً كلما ساءت حالته النفسية. أضحكني المُلقب بالمهلوس حين استحوذ على السرير الذي كان لعيسى ومن بعده لشريف. قال وهو يشير إلى المرضى: سترون أنني سأخرج قبلكم. هذا السرير مَن يرقد عليه يخرج من هنا سريعاً. سأخرج للقات واللحمة.

* ٧ *

للسعادة لون مُشرق لا يُراه المرء إلا في وجوه الأخرين، فكلما كنتُ أساعد مريضاً على الشفاء كنت أشعر بسعادة أنا أيضاً. خرجنا اليوم بعد الظهر إلى الساحة، شاهدنا رجلين يحضران جفنة كبيراً من

الأرز، فتهافت الأشداء من المرضى حوله وأحاطوا بها كسوار على المعصم يتعاركون، يفتشون عن اللحم. سمعتُ الملقب بالزعيم وهو يقول:

– تفضّلوا يا جنودي، هذه إحدى هباتي، كُلوا يا أسود، غداً سأخوض بكم البحر. شاهدت العُطّار الملقب بالفيلسوف ينقر رأسه بسبابته، لم يشاركهم وكذلك نبيل المهلوس بعيداً عن المائدة، كان جالساً على الأرض وبيده حصى يرمي بها. يحدّث نفسه بصوت مرتفع والغضب يعلو وجهه: آه، يا جبان! خدعتني يوم ما كنا نسكرُ سوياً... لعنة الله عليك وعلى الخمر... عملتها يا جبان، كنت أظن أنك صديقاً وفيّاً أفضل من أخ. أتذكُرْ يوم ما قبضت عليك الشرطة ليلاً؟ وأنت تحمل البنت "جُمعة" فوق الدراجة الهوائية، وهي مُرتدية لباس رجل؛ لتنام معها وأنا الذي أخرجتك من هذه الورطة يا حقير، يا خائن... ورحت تبكي على مصير جُمعة في قسم الشرطة، وهي التي لم تتجاوز الثالث عشر. كنت لك أكثر من أخ، وأنت لدغتني كالثعبان. امشِ من أمامي يا كلب وإلا سألطم أبوك...زنوة، ابن قحبة. لا تضحك، امشِ، امش... ثم استقام وقد استشاط غضباً وطوّح بكفّه في الهواء كمن يلطم أحداً وقال: هكذا أنتم يا مخادعين، جعلتني أوقّع على الأوراق وأنا سكراناً –ركل الهواء برجله –امشِ يا كلب... لا تعُد إلى هنا مرة أخرى، يا ابن القحبة.

قرأت ما يعاني منه المهلوس وهو يُحاكم ويجلد خصمه، يتخيله أمامه، وجدته أنه ذو نفس شفافة لا تتحمل الصدمات، وقد أصيب

بصدمة لم يستطع أن يتحملها من صديق كان يراه عزيزاً عليه. وما أمر الخديعة ممن تراه عزيزاً عليك. بعد أن عرفتُ قصة سجنه اقتربت منه أحدّثه، ثم سردت له تلك القصة، التي أصابته بصدمة نفسية، التفت يسألني والدهشة في عينيه:

– مَن أخبرك بهذا، هل أنت حُرّاب. ها أنا ذا في السجن ماذا أيضاً تريدون مني؟ ضحكتُ من خوفه من المُخبرين. أضفت له:

– يا نبيل بعد دخولك هنا، كُشِفتْ حقيقة اللصوص في وزارتكم، وأمر الرئيس بقطع أيادي اللصوص؛ جزاءً لما اختلسوه وعلّقوا كفوفهم في ميدان التحرير. والحقيقة إنها لم تُقطع يد أحد من خصومه، بل قُطعت أياد أخرى. ذهب المهلوس يجري إلى حُرّاس المصحة، يسألهم بلهفة:

– يا عسكري، هل صحيح أن الرئيس قطع أيادي اللصوص في وزارة... هل هذا صحيح، هيّا، قل بسرعة، أرجوك؟ لم يرد عليه الجندي. جرى يسأل شخصاً آخراً. رد يقول له:

– نعم، سمعنا بقطع ثلاثة كفوف ممن سرقوا المال العام. رجع يجري إليّ وهو يصيح سمعها السجن كاملاً: "الحمد لله أنتقم الله لي..." رددها كثيراً. ثم اقترب مني ودموع الفرح تتراقص في عينيه:

– أين أنت من زمان لتخبرني بانتقام الله لي. لماذا لم يخبروني بمعاقبة اللصوص في الوزارة؟!

أخبرني المهلوس عن محاكمته، كيف انفجر غيضاً أمام القاضي، بأنه سوف يقتل اللصوص الذين خدعوه، حين يخرج من السجن، عندئذ أصدر القاضي أمراً بإحالته إلى المصحة للكشف عن قواه العقلية. عدنا إلى غرفتنا والبهجة تنضح منه، يتحدث:

– لقد انتقم الله لي، سُجن أولاد الحرام ... قُطِعت أياديهم، انتقم الله لي، تحيا العدالة، يعيش الرئيس، سأصلي لله، لن أشرب الخمر بعد اليوم، سأحذر الأصدقاء أكثر من الأعداء.

مرّت ثلاثة أيام، ولم يعد نبيل المهلوس يحدّث نفسه، وأخيراً أخبر الأطباء، أنه لم يعد بحاجة إلى علاجهم.

كنت أعطي نجوى ما أكتبه حين تزورني في المصحة، ولم أكن أدوّن التواريخ على الصفحات، فليس لدينا تقويم هنا في الغرفة، لهذا لم أؤرخ ليوميات ما أكتبه.

* ٨ *

خرج المرضى هذا اليوم لفسحتهم اليومية، وبقيت مع المُلقّب بالفرخ الذي أعتاد الانزواء في ركنه يقضم أصابعه، يتلفت يمنة ويسرة بعينين قلقلتين. جلست أتحدث معه، عرفت أنه اسمه (عبد الحميد). حاولت أن أقرأ تفكيره أو أنفذ إلى ذاكرته، لكنني لم أستطع، مما سبب لي إجهادا وصداعاً، فأجلّت فضول المعرفة معه إلى وقت أخر. وجدت بعض المرضى مثله لم أستطع الغوص في ذاكرتهم، حين يكونون في حالة من التوتر أو العصبية.

– بعد أن انقطعت أخبارك عنّا ذهبتُ إلى مقر عملك السابق، أخبروني عنّك كثيراً... لكن كيف دخلت هنا ولماذا؟! أنت أعقل من عقلائهم. كانت أراءك في خدمة الوطن وهم في خدمة أهوائهم، كيف يوقفونك عن عملك؟ سنخرجك من هذا السجن، سندافع عنك وسنرفع شكوى إلى الرئيس، هو لن يرضى بما يجري لرجل مثلك.

أخبرتني أنها عادت إلى عملها في المنتدى، ولم تشاهدني. سألت عني وعرفت مكاني. بكت أمة اللطيف بعد أن أخبرتني بكلام أثلج صدري، وهي تخفي دموعها عن طفليها. شكرتها لحضورها وقلتُ لها: إنهم يرونني مجنوناً، ولم يزرني أحد من المنتدى وكذلك مكتب النقل البري. أنا الآن بين ضحايا مجتمع وخير لي أن أكون ضحية وليس مجرماً.

مصادفة حضرت نجوى كعادتها وأمة اللطيف تبكي أمامي، وطفليها ينظران إلى وجهها. كنتُ مرتبكاً مما ستعمله نجوى حين تسألني عنها، تخيلتها للحظة نمرة تدافع على نفسها وصغارها، تقفز إلى عنق أمة اللطيف مَن كانت تزورها حتى في أحلامها. قلت في نفسي "يا الله سِترك". حينما عرّفُتها بعدوة أوهامها، نظرت إليها بخبث وقالت:

– ها ... هذه أمة اللطيف، وأردفت وهي تنظر إلى طفليها: ما شاء الله ... ثم أعطتني كيساً به طعام، وهي تنظر إلى الطفلين تفكّر هل يشبهونني. ضحكتُ من دودة الشك التي مازالت تنخر في فكرها حتى وأنا في معتقل الجنون. ذهبتْ أمة اللطيف وهي تطمئن نجوى، أنها

ستساعدها في إخراجي من المصحة، لكن نجوى كانت تراقبها بعين الغيرة، ما فيها من حُسن وتفاصيل الأنثى الشهية. قلت لنفسي "الحمد لله انتهت الزيارة بسلام".

* ٩ *

خرجتُ هذا اليوم إلى الساحة أتأمل المرضى، أراقب أرواحهم البريئة التي ترفرف مثل العصافير، حين تعبث بها عاصفة هوجاء. أدهشني أحد المرضى وهو يقف مبتهجاً في ساحة المصحة، والمرضى يقذفونه بالحصى والدم يسيل من رأسه، وذهب هو يجمع الحصى من حوله. فكرت سوف ينتقم منهم ويقذفهم بها، لكنه ذهب إليهم وأنا متوجساً خيفة من معركة حامية الوطيس. وصل إليهم وابتسم ثم أعطاهم الحصى بكل سعادة؛ ليقذفوه مرة أخرى. جاء الممرضون سريعاً واخذوه بعيداً، ودمه يسيل على خده الأيمن والبسمة لا تفارق شفتيه. حيّرني هذا المريض الذي يتلذذ بالألم. مشيت في الساحة وفضول المعرفة ينخر رأسي، لأعرف سبب لذته للألم.

ذات يوم زارتني نجوى. سألتها عن الأهل والحي ولماذا لم يزورني. فرأيت دمعتين تترجرجان في عينيها، لم ترد أن تسمعني ما أكره لكنني عرفت ذلك. وخلال حديثنا حدث ما لم أكن أتوقعه، هو حضور "غصُون" وهي ملثمة، ما كنت سأعرفها لولا عينيها النجلاوتين وصوتها الذي لن أنساه. حاولت أن أخفي دهشتي؛ حتى لا تشك نجوى أن لي معرفة بها. رحت أتذكر ما قالت لي غصون، حين كنت

فـي أسـرها الثـاني، أنهـا سـتعود إن لـم تحمـل وكـذلك تهديـد زوجهـا لـي؛ إن لـم يحصـل علـى الكنـز، لكننـي حـين رأيـت كفّهـا يمسـح علـى بطنهـا المنتفخ بروح جديدة، قلت لنفسي:

– الحمـد لله حصـلت علـى مـا تريـده، ولـن تشـوّه سمعتي...صـحيح أن مـا عملتـه غصُـون غريـب فـي مجتمعنـا، لكنـه موجـود فـي مجتمعـات أخـرى، فالولـد لمـن ربّـى ولـيس للفـراش. أخرجتنـي نجـوى مـن ذهـولي، حين سألتني والغيرة في عينيها:

– مَنْ هذه المرأة؟ قلتُ لها:

– أنها تعمل في مكتب النقل البري، زوجها صديقي.

تراشـقنا بـالنظرات أنـا وغصُـون. فكـرتُ حينهـا "تُـرى لـو كانـت نجـوى تقـرأ أفكـاري، مـاذا كـان سيحصـل لـي؟". ابتسـمتْ غصُـون، وقالـت لـي: صـديقك نـاجي يبلغـك السـلام، لـم يسـتطع أن يـأتي لزيارتـك، وأرسـل إليـك هـذه القـارورة العسـل، وأشـارت إلـى بطنهـا المنـتفخ بالحيـاة. حـدثتُ نفسـي "لقـد صـدق الراعـي، فيمـا قالـه عـن ذكـاء غصُـون"، حينهـا قلـت لنفسـي إن الذكاء سيف ذو حدين في يد الإنسان وخاصة المرأة.

انصـرفت غصُـون وأعطيـتُ نجـوى العسـل وهـي تفكّـر "هـل هـي زوجـة صـديقي حقـاً، أم هـي زوجتـي فـي السـر؟" وأنـا أفكـر فـي غصُـون أيضـاً " أتُـرى هـل مولودهـا سـيكون شـبيهاً بأبيـه البيولـوجي، هـل سـيكون ذكـراً أم أنثى؟ ماذا لو كان ولداً؟ ".

اشتقت إلى مولودها الذي قارب أن يرى هذا العالم، وقررت زيارتها بعد خروجي من المصحة. سألت نفسي "أتُرى لو رأيته يشبهني، ماذا سأعمل؟ هل ستعصرني الأبوة وتشتعل نيرانها فيّ، أو سأكون كم مَنْ رمى بذرته وذهب غير آسف على شيء وغير مهتم بما سيكون؟"

عادت نجوى إلى منزلها تحمل بعض الأوراق، وهي حائرة من أمر غصُون والشك يعصرها. مَن تلك المرأة السمراء الساحرة العينين؟، التي رأيتها أنا ذات يوم قمراً بلون الياقوت الأسمر.

* ١٠ *

كنا نجد ساحة المصحة متنفساً رائعاً، نرى منه الفضاء الحر، فنشعر بنوع من الحرية. كنت أحسد الطيور وهي تُحلق في سماء الحرية، وإن كانت كواسرها تفتك بها التي هي أقل ضرراً من كواسرنا. رأيت الملقب بالزعيم يقف منتصباً ينظر إلى الأفق بشموخ، يلوي فمه يدندن بأغنية انجليزية. مرّ أمامه مريض يبكي، فألتفت نحوه يسأله بغرور ويديه مترادفتين على صدره:

– لماذا تبكي؟ الرجال لا يبكون!

– ضربني الطاهش (أسد)، يا زعيم.

– لماذا لا ترُد عليه؟

– هو أقوى مني يا زعيم.

ذهب الزعيم إلى الملقب بالطاهش، يسأله بكبرياء:

– لماذا ضربت أحد جنودي؟ –رأيت الطاهش متوتراً –أنا الزعيم هنا، لا أحد يجرؤ على المساس بجنودي. كان المُلقب بالطاهش ينظر نحو الزعيم شزراً وبريق الشر في عينيه، يقضم أضافره، أنفاسه تتسارع. فجأة وثب على الزعيم، وهو يقول:

– أنت زعيم...؟

– نعم، أنا زعيم.

– أنتم قتلة، تستحقون القتل، ثم نزل عليه ضرباً واشتبك الاثنان معاً. عضّ الطاهش أذن الزعيم وشترها، كاد أن يقتله من الضرب، يعضه هنا وهناك ككلب مسعور، لم أشهد رجلاً يقاتل مثله. كانت عيني تشاهده عدداً من الرجال ولحظات أرى جيشاً من الثائرين يتزاحمون حول الزعيم. والمرضى يصيحون، يضحكون. أحدهم كان يصيح:

– انقلاب، انقلاب...حضر الممرضون وفضّوا الاشتباك. قلت لهم: أنتم مهملون، لماذا أهملتم جرعته. نظر إليّ أحدهم، قال:

– ما أدراك أنت بهذا يا خِلْع[20].

أخذوا الطاهش إلى غرفة الكهرباء، وأخذوا الزعيم إلى غرفة الجراحة؛ ليخيطوا جراحه. سمعت المُلقب بالفيلسوف وهو يقول وقد كان حاضراً تلك المعركة:

– مَن يرد الزعامة، دنَت منه القيامة.

* ١١ *

[20] غبي

وجدته الزعيم اليوم الثاني مُنكسراً، يكاد الحزن يقطر من عينيه وقد أصبح أقوراً يتحسس ما تبقى من أذنه. فكرتُ أن أجعله يكره هوَسه بالزعامة. سألته عن اسمه فقال اسمه: عبد الله السنحاني. ضحكتُ معه قليلاً، ثم قلت له:

– هكذا هم الزعماء يُطاردون ويقتّلون في أماكن عدة، وهم في خوف حتى من أقرب الناس إليهم، محاطون بالحُراس ليلاً ونهاراً. وآثارهم تُمحى أكثر من أي إنسان عادي، وهناك من يلعنه التاريخ دهوراً. كان يرمقني بحذر بين الحين والحين، وهو يبتسم بسُخرية. أردفت بكلامي، قائلاً:

– أتحب أن تعيش في خوف دائم؟، أو تكون قاتلاً أو مقتولاً في هذه الساحة. سيرسلون غير الطاهش ليفتك بك. أفتر عن اسنانه وفي عينيه مكر، وراح يحدّث نفسه بشيء أذهلني: "هه .. هذا الرجل، يظن أنني زعيم حقّاً، هههه. أنا أكره نفسي، أحتقرها بقدر ما أفتخر بها أمامهم". تحسس أذنه المشتورة بألم بالغ وقطب حاجبيه، ثم عاد يحدث نفسه: "هذا ما جنيته من الزعامة ... لعنة الله عليها، كيف مثّلت دورهم! كُل هذا منك يا صديقي أحمد حين رأيتني منكسراً، كنت تقول لي: فيك صفة الزعماء، يمكن أن تكون زعيماً ذات يوم..." اندهشت مما فكر فيه، وكيف يظهر عكس ما يبطن؟! إنه ممثل بارع، أم فعلاً المغرورون والمتكبرون يكرهون أنفسهم دون أن يدركون ذلك. سألت نفسي "هل شتر أذنه أخرجته من جنون العظمة أفضل من العلاج النفسي؟"

مـر أسـبوع ولـم يعـد عبـد الله يـرى نفسـه زعيمـاً. أصـبحنا أصـدقاء نمشـي معـاً فـي السـاحة. حـين كـان الـبعض ينادونـه: يـا زعـيم؟ لا يـرد عليهم ولا ينظر إليهم. رد على أحدهم مرة بسخرية:

– تخلّيت عن الزعامة.

أحاط به المرضى، يسألونه:

– لمـاذا يـا زعـيم تخلّيـت عـن الزعامـة؟ ولمَـن قـدّمت اسـتقالتك؟ أبتسـم وقال:

– تنازلـتُ بـه إلـى صـديقي عبـد الفتـاح ولكـم جميعـاً. ضـحك أحـدهم وقال:

– الزُعمـاء لا يتخلّـون عـن الزعامـة ولـوا قامـت القيامـة... هههـه المـوت أقـرب لهـم. أنـت زعـيم مُزيّـف. لـم يبـق عبـد الله فـي المصـحة إلا أسـبوعاً، وخرج منها بعد تلك الحادثة، بعد أن تأكد الأطباء من شفائه.

كـان هـذا اليـوم أسـعد أيـام حيـاتي، وقـد أمضـيت شـهرين وخمسـة أيـام أزاحـت عنـي معانـاة السـنوات الماضـية، شـعرت أنـه عيـد عمـري فقـد عـرف الأطبـاء أننـي السـبب فـي شـفاء: عبـد الله، عيسـى، شـريف، المهلـوس، ومرضـى آخـرين... أشـادوا بمـوهبتي. بكيـت فرحـاً، كـادت الفرحـة أن تحلّـق بـي فـي الفضـاء! بعـد أن خـذلني المجتمـع فـي مـواهبي، وأرجعوهـا لمسـاعدة الجـن لـي ورأونـي دجّـالاً. كـان الأطبـاء فـي دهشـة مـن أمـري، كيـف اسـتطعت عـلاج المرضـى! بعضـها كانـت حـالات مستعصـية. تسـاءلوا فيمـا بيـنهم: مـاهي طريقتـي السـحرية فـي التحليـل

النفسي؟ في الوصول لمعرفة الأسباب التي أدت إلى المرض، وأنا دخلتُ المصحة مريضاً، بمرض النرجسية. أتفق الأطباء على بقائي فترة بسيطة في المصحة، لمساعدتهم في معرفة الحالات المستعصية. أفادوني بأن هناك خطأً في التشخيص، وناقشوا الأمر مع المدير الذي لم يستطع مخالفة رأي الأطباء الأخصائيين وكان بينهم أطباء عرب، لكنه أصرّ على بقائي في سريري بين المرضى. كنت سعيداً بقرار الأطباء فأخيراً وجدت من يُقدّر موهبتي... سأعود إلى الحي مرفوع الرأس، وأنني طفرة هذا العصر.

* ١٢ *

كنت أمر صباحاً مع الأطباء، وخاصة مع الدكتور منير القدسي في قسم (العُصاب)، لمعرفة بعض الحالات المعقدة، فهناك أسباب لحوادث مرضية دفينة في المرضى، يصعُب على المريض نفسه أو الطبيب اكتشافها، وهناك مرضى يرفضون أن يخبروا الأطباء عمّا يكبتونه، خوفاً أو حياءً وأفادني الدكتور منير حين قال: إن العقل له وسائل عِدة للدفاع عن ذاته التي تُعبّر عن اختلالات جسدية ونفسية.

ذات يوم كنت معهم في الساحة، ورأيت مريضاً تبدو عليه النظافة والهدوء يتحدث بلباقة لم أره مريضاً لكنني رأيته يدس يده خِلسة في جيب الطبيب. سألت الطبيب عنه، فضحك وقال:

– إنه مصاب بمرض كبتومانيا (مرض السرقة). ضحكت وقلت له:

– هل هذا هو مرض المسؤولين؟ ضحك وقال:

– هؤلاء غير ذلك، إنهم يسرقون أي شيء تافه عديم القيمة.

أثناء زيارتي للمرضى مع الدكتور منير، وجدت مريضاً في قسم الذُهان شارد الذهن، لم يستجب لنا كأنه لا يسمعنا بل يُحرك يديه استغرباً، تقف يده ساعة في وضع واحد، حيّر الأطباء في معرفة سبب معاناته التي أودت به إلى هذه الحالة.

وجدت غالبية المرضى بين العشرين والخمسين من العمر، مِمَن قهرتهم الحياة وتغلّبت على وسائل الدفاع لديهم. كنت أغوص في رواسب تلك الذكريات المؤلمة، وأخبر الأطباء، بما أقرأه فيهم، وهم يكتبون أسباب المرض النفسي ويكتبون تشخيص المرض، مثل ما كنت أسمعهم يقولون: الفتشية، المازوخية، الهستيرية، النرجسية، الكتاتونية، السادية، الوسواس القهري.. أسماء غريبة عليّ.

ذات يوم كنت مع الأطباء في قسم الذُهان، شاهدت مريضاً لا يبدو عليه المرض، يبتسم نظراته عاديه يبدو لطيفاً، لكن أفكاره كانت مُخيفة إلى حدّ الرعب "الناس أغبياء، يرونني مجنوناً، تباً لهم ولاعتقادهم، عوضاً على مكافأتي يعاقبونني. هذه زوجتي "جليلة"، كنت أطهرها من الآثام ودخلتُ هنا بسببها، كانت عابدة تدعو الله أن يدخلها الجنة، فأسرعت بتلبية طلبها. كانت ستنتظر كثيراً، فخنقتها بيديّ. نعم، خلّصتها من جحيم الدنيا وأسرعت بها إلى الجنة التي يتمناها كل البشر... آه، كم أحبك يا جليلة" –تدحرجت دمعتان على خده – وعيناه تنظران نحو الأفق البعيد.

أخبرت الدكتور مُنير بما عرفته من تفكير جنوني أذهلني، كيف يرى التعذيب تطهيرا من الآلام والقتل محبة! أدهشني هذا المريض فعلا وكنت أراه غير ذلك، وكان حاضراً معنا الدكتور المصري عزّت الأسيوطي، الذي راح في دهشة من مقدرتي على سبر غور العقل الباطن للمريض. قال لي والدهشة في عينيه وهو يقلب كفيه:

– المريض دَه كنتُ أظنه سيكوباتي، لكن طِلَع سادي أيضاً. يا سلام عليك يا عبد الفتاح، إزّي عرفت دَه كُله؟ دا أنت دكتور أفضل مِننا، ايه ده يا راجل! أما حالتك دِيهْ أنا عرفتها، بس على شان أتأكد، عاوز أسألك كم سؤال:

– هل تسمع الهمس الخفيف والحركات البسيطة للأشياء؟ قلت له:

– نعم، كنت أسمع حتى طنين الذباب، لكن بعد جلسة الكهرباء التي صعقتني لم أعد أسمع ذلك.

– باقي سؤال ثاني. هل كنت ترى الهدوم الداخلية للناس اللي حواليك، أو شيء مُخفى عنك أو...؟ ضحكت، قلت له:

– نعم، كنت أرى الناس عرايا، وما داخل الثلاجة المُغلقة.... أما الآن لم أعد أرى ذلك.

وضع الدكتور كفّيه على جانبي رأسه وهو في حالة دهشة ثم هتف وكأنه أكتشف عجباً، وقال:

– دا أنت معجزة زمانك، دا أنت مُش معقول!، أنت مُش عيّان، الذين أدخلوك هِناهُم العيّانين، ثم قال للدكتور منير وهو في غاية حماسه:

ده يـا دكتـور مصـاب بـ"الكبت النفسـي المـنخفض" لازم تقـرأ عنـه، وتفـرّق بينـه وبـين الكبـت النفسـي المرتفـع، هـو عكسـه تمامـاً. ويمتلـك أيضـاً الحاسـة السادسـة بدرجـة عاليـة. وراح يُعبّـر عـن دهشـته ونحـن نمشي قائلاً:

– أنـت عـارف يـا دكتـور، الحاسـة دِيـهْ موجـودة عنـد الكثيـر مننـا، لكـن بدرجـة متفاوتـة وهـي تُعتبـر موهبـة خارقـة، تتـيح للشـخص الـذي يمتلكهـا القـدرة علـى التخـاطر وقـراءة الأفكـار، واستشـعار خـارج الحـواس، ولهـا أشـكال متعـددة منهـا البصـري والسـمعي. وهـذه القـدرات تنـدرج تحـت عِلـم البـارا سـيكولوجي، وهـي فـرع مـن علـم "البارنورمـال" أي الظـواهر الخارقـة لقـوانين الطبيعـة. لعـل هنـاك منطقـة فـي المـخ البشـري التـي لهـا تلـك القـدرة الخارقـة، ويعتقـد الكثيـرون أن السـر وراء عبقريـة العبـاقرة هـو امـتلاكهم لهـذه الحاسـة بدرجـة عاليـة، مثـل الحالـة دِيـهْ اللـي عنـدنا. عبـد الفتـاح ده حاجـة مُدهشـة حقّـاً، مقدراتـه تجـاوزت الحاسـة السادسـة. راح الدكتور منير يسأله: هل يوجد تفسير علمي لحالته هذه؟

– لـو وجِـد تفسـير علمـي للمعجـزة، مـا تبقـاش معجـزة، هـي كِـده خـرق قـوانين الطبيعـة، وهـو اسـتثناء مقـدّر مـن الله لـبعض البشـر، أكانـت علـى المسـتوى الصـغير أم علـى المسـتوى الكبيـر، كمـا هـي معجـزات الرُسـل. وهـو علـو الـذهن وصـفاءه فـوق أدمغتنـا المحـدودة، مـا يسـمى بالفضـاء الـداخلي وأدمغتنـا تنتهـي إلـى هـذا النظـام الطبيعـي العلمـي، ولكـن لـدينا اتصـال منقطـع بالمجـال الـذهني للمجهـول الـذي يتجـاوز ذلـك النظـام

والقدرة. كنت أسمع حديثهما الذي لم أفهمه، ثم أخذ الدكتور منير بدوره يتحدث:

– يبدو أن هذا "الأنا" الخافي، واستدعاء الذات العليا الذي يجهله الوعي، غالباً هو مقر تلك الظواهر الغامضة، والتي تمتد من الأحلام والمعرفة المُسبقة، فهناك أناس لهم معرفة بالمستقبل مثل "طريفة اليمانية"، كاهنة مأرب قبل الإسلام التي تنبأت بتهدم سد مأرب، وسطيح كاهن وعرّاف اليمن، وقُس بن ساعدة، الذي كان يعرف ما يُخفى عنه ويقرأ الأفكار، والبصّارين كذلك. ثم ذهبا يتحدثان فيما بينهما.

شعرت بالزهو مما قاله الطبيب عزّت عني، رأيت نفسي وقد عرف الجميع مَن أكون وتخيّلت الحي يستقبلونني بالترحيب والكل يطلب مودتي، والحاسدون أيضاً يظهرون حبهم لي، وهناك مَن يطلب مصاهرتي في زمن يرون بنت المدينة الحاصلة على شهادة جامعة فَرسة جموح من الصعب ترويضها، وأن بيتي مزاراً للأصدقاء لمن يريد أن يتعرف عليّ. طبعاً فأنا معجزة زماني، وخِلتُ نفسي وأنا أشكرهم بتواضع، وتوقعت حضورهم إلى هنا إذا علموا بأنني معجزة زماني؛ ليزورونني قبل خروجي من هذه المصحة المُذلة، مُعتذرين عن عدم زيارتهم لي لأسباب خاصة بهم. سيكون عرسي الثاني حين يزفّونني كعريس إلى منزلي.

على الرغم مما أمتلكه من هذه الموهبة الخارقة، إلا أنني أصبحت أود أن أبتعد عن البشر وأنعزل عنهم بعيداً، وكأنني أود أن أفارق

الحيـاة، لمـا وجـدت وحوشـاً فـي معظـم البشـر يخفـونهم فـي ذواتهـم، يطلقونها حينما يشاؤون.

* ١٣ *

مـا لـم أسـتطع أن أسـاعد فيـه الأطبـاء فـي قسـم (الـذُّهان)، هـو أن هنـاك حـالات عـدة مـررتُ عليهـا، يعيشـون فـي غـرف خاصـة، مـنهم عـدوانيون، مـنهم مُسـالمون. ذاكـرتهم طُمسـت وانفصـلوا عـن واقعهـم الإنسـاني، لا يفهمـون ولا يعـون شـيئاً. أخبـرت الطبيـب منيـر: إننـي لـن أتمكـن مـن معرفة أي شيء عن هؤلاء المرضى. ابتسم وقال:

– لـو اسـتطعت يـا عبـد الفتـاح أن تعـالج مثـل هـذه الحـالات، لاصـبحت أعظـم طبيـب نفسـاني فـي التـاريخ، وتفوّقـت علـى سـيجمون فرويـد. هـؤلاء المرضـى يـا عبـد الفتـاح، لـم يبـق مـن عقـولهم إلا العقـل البـاطن "الهـو" أمـا الأنـا والأنـاء الأعلـى فقـد فقـدوهما. هـؤلاء المرضـى تصـرفاتهم بهيميـة، لهـم وقـت طويـل هنـا لـم نجـد لهـؤلاء أقـارب، وبعضـهم إن كـان له ذلك يرفضون حتى زيارتهم.

مرت فترة صمت ونحن نمشي ثم قال:

– لكـن يـا أخ عبـد الفتـاح، مـاذا نقـول عنـك: دكتـور، معجـزة... فـي عـالم لـم يعـد يعتـرف بـالمعجزات، لقـد أدركـتَ مـا لـم نسـتطع أن ندركـه نحـن فـي شـفاء بعـض الحـالات. شـفي الكثيـر مـنهم هنـا بفضـل موهبتـك، لا أدري كيـف دخلـت هـذه المصـحة مريضـاً، كـان يجـب أن تـدخلها طبيبـاً أو مـديراً. حـين قرأنـا ملـف دخولـك وجـدنا، أنـك ادّعيـت النبـوة وأنـك تعلـم

الغيب، كان تشخيصك بالنرجسية الحادة، وتم علاجك على هذا الأساس. استغربنا كثيراً لماذا قُرّروا لك جلستين كهربائية! وهذه الحالات لا تتطلب إلى ذلك، ثم أردف: لكن سأعيد تشخيص مرضك وسأكتب الحقيقة.

عدت إلى غرفتي فرحاً باقتراب خروجي من هذا السجن المُهين، والسعادة تغمرني.

*** ١٤ ***

كان بقائي في المصحة درساً جديداً لي في الحياة، ما كنت سأعرفه لو لم أدخلها. وجدت المرضى ذوي أنفس شفافة، وإنسانية وطيبة أكثر من الناس العاديين. يعيشون بين عالمين، عالمهم الخاص بهم، وعالمنا نحن جميعاً، لم يستطيعوا التوفيق بين العالمين، فتاهوا بين هامشي العالمين. أناس أرادوا التوفيق بين الخير والشر بين الماء والنار، فأصابهم من الماء جليده ومن النار جحيمها. ولو أنهم أدركوا أن هذه سُنة الكون خُلق على المتناقضات: نور وظلمة، خير وشر، أخضر ويابس، جمال وقُبح، جنّة ونار، إله وشيطان، لَما تاهوا بين دروب الحياة، التي لن تخلو من الألم قط، وليس معنى هذا أن ييأس الإنسان أو يفقد الأمل، ذلك الذي يجعلنا نرى القُبح جمالاً. وأظن بساطتهم وقِلّة حيلهم على التكيُّف في محيطهم، مقارنة بالآخرين هما اللذان أودى بهم إلى التيه في دروب الحياة.

رأيت عامة الناس صنفين، بين مريض في جسمه وسليم في عمله وتفكيره. وصحيح في جسمه وعمله وتفكيره مريض، وهم الغالبية العُظمى، وقلَّ ما رأيت صحيح الجسم والفكر معاً وهم الأخيار الذين كالماء الذي نطفئ به نار الأشرار. هؤلاء الذين سعادتهم تنبع من داخلهم ولا يجلبوها من خارج الجسد.

*** ١٥ ***

من التواريخ المهمة في حياتي هو الحادي عشر من أكتوبر (١٩٧٧م) الذي سيظل محفوراً في جبين التاريخ، ووصمة عار في جبين العملاء. في هذا اليوم سمعت سُخطاً وصياحاً بين الممرضين، وبعض المرضى كانوا يتهامسون. قال أحدهم بغضب: قتلوا اليمن. قتلوا الأمل...

لم أتحمل الصدمة حين علمت أن الرئيس "إبراهيم الحمدي" قُتل. كُنا نرى من خلاله الأمل والمستقبل العامر بالسعادة. لَست أدري هل القتلة من أبناء جلدتنا، أم أنهم أعداء دُخلاء علينا لا نعرفهم؟، أم هم ذئاب بشرية تودّ أن تسود المجتمع؟ سمعت أحد الممرضين، يقول بحزن أمام رفاقه:

لم نَعشْ في الحَلم إلا لحظةً بين أحضان القمرْ.

فتماها حلمنا، قبل ما يرنو إلى الصُبح الأغرْ.

وعدا الليلُ على خيلِ الردى

يشنقُ النخلَ التي تعطي للجوعى ثمرْ.

ومشينا خطونا
لم نكن ندري سنيناً أننا نمشي
على درب الحُفرْ.

* ١٦ *

-أنا مجنون، أنا حُر-

جلسة الكهرباء الاستثنائية، التي أخذتها أمس أصابتني بالوهن الشديد، لم أعرف من الذي قررها لي بعد أن شتمتُ قتلة الرئيس في غيابهم، لكنني خرجتُ إلى الساحة مع الآخرين. كنت أشاهد هدوء المرضى كهدوء يسبق العاصفة. وجدت المُلقب بالعُطّار فيلسوفاً حقاً، أذهلني بكلامه. كان منتصب القامة، ينظر نحو كبد السماء. حين سألته:

- لماذا تنظر إلى السماء يا عُطّار؟ رد بهدوء ووقار:

- أتواصل مع الكون.

- وكيف ذلك؟! يا عُطّار.

نقر رأسه بسبابته اليمنى وقال: بهذا.

وقتذاك مر أحد المُمرضين وسألني:

– ماذا يقول لك هذا المجنون، إنه متهم بالكُفر. ألتفت العُطّار نحوي وقال غاضباً، وقد تغيرت ملامح هدوئه: هكذا هم البشر مَن لم يفهموه يتهمونه بالجنون والكفر والزندقة. من يأتي بغير المألوف يلقى بالكفوف، ثم ضحك بعد أن أستعاد هدوءه وقال:

– سمعت أنك تعالج المرضى مع الأطباء، كيف تقدر على ذلك وأنت لست طبيباً؟، قلت له:

– أغوص في ذاكرة المريض وأعرف معاناته، ثم أخبر الأطباء فيعرفون أسباب المرض. التفت نحوي ببهجة، وكأنه وجد كنزاً وسألني وقد بان عليه الغضب:

– وهل لديك مواهب أخرى؟

– نعم، قبل أن أدخل هنا كنت أسمع عن بعد وما لا يسمعه غيري، وأرى عن بعد وما لا يراه غيري. كنت أرى الناس عرايا، لكن جلسات الكهرباء أفقدتني كل هذا. أشتد غضبه وضرب يداً بيد... وقال بصوت عالٍ:

– حُقراء، سَفَلة. عقلك يعمل بطاقة أكبر من الغير، هكذا عملوا بي أنا أيضاً حين قلت: لا يمكن أن يكون الإنسان الحالي هو خليفة الله الحقيقي وروح منه في الأرض، وهو بهذا الضعف والهمجية. الخليفة المقصود لم يأت بعد...وقلت لطلابي حين أعطيتهم دروساً في مادة

الفيزياء عن الإسراء والمعراج: إن النبي محمد(ص) تحوّل من كتلة إلى طاقة بقُدرة الخالق، وأسرى به إلى القُدس ثم السماوات العُلى بسرعة الضوء. ثم راح يمشي أمامي بتوتر ذهاباً وإياباً، ويداه متماسكتان خلف ظهره وهو يقول:

– هكذا العباقرة يُعاملون. جرّعوا سقراط السم، حاربوا جاليليو، طردوا سبينوزا من مدينته وكفّروه حين أنتقد المُقدّس لديهم، وقتلوا غاندي وحاولوا قتل عيسى، والنبي محمد(ص)... هكذا هو المجتمع البشري، من يخالف عاداته وتقاليده ولو يكُون على حق، يحاربوه ويكفّروه ويقتلوه أحياناً. هذه المجتمعات مُخدّرة عبر الأزمان بما اعتادوا عليه، وذهب يقول كلاماً عن الأديان أخافني... ثم نظر نحوي وفي عينيه بريق الغضب وقال:

– بالله من المجانين، هؤلاء العباقرة والرسل أم مجتمعاتهم؟ أليس نحن هنا بسبب المجتمع؟، ثم راح يذرف الدموع... بعد أن هدأ قليلاً. قلت له:

– يا رفيق مأساتي، لقد تحدثت بكلام منهيّ التحدث عنه وهو المقدسات. إذ به يلتفت نحوي بحدّة، ومازال الدمع يترجرج في عينه، وذهب يقول وهو يشير بأصبعه نحوي بتوتر:

– مُقدسات، مُقدسات... مُسدسات. هكذا أنت مثلهم ترون ما أقوله جنوناً. تبّاً لعقولكم إن كانت لكم عقول. ثم أشتط غضباً مما خوفتني ردة فعله، وذهب يصرخ بحدة والزبَد يتطاير من شفتيه وصاح:

– سأقول الآن ما أشاءءءء. ماذا سيفعلون بي أيضاً. أنا مجنون سأقول ما لم أستطع قوله من قبل. سأقول ما أريده، ثم ذهب يهتف:

"أنا مجنون، أنا حُر...." وذهب يرقص رقصة هستيرية، لم أر مثلها في حياتي، ثم خلع ثيابه فجأة ورمى بها بعيداً، كأنه يود أن يرمي بها خارج سور المصحة، وتعرّى تماماً وأستمر في رقصه الجنوني وهو يهتف عالياً أنا مجنون، أنا حُر....

اقترب بعض المرضى نحوه يتزاحمون حوله: عشرة، عشرون، ثلاثون شخصاً... يُصفِّقون، يضحكون. وسار كُلٌ منهم ينظر نحو الآخر بنظرات خاطفة جنونية، فجأة تعرّى الجميع وذهبوا يرقصون معه وهم يهتفون" أنا مجنون، أنا حُر..." كانت البهجة في عيونهم لا توصف.

كان كل شيء فيهم يرقص: أرجلهم، أيدهم، رؤوسهم. عيونهم تضحك. تهامس البعض فيما بينهم، ثم جروا دفعة واحدة نحو الآخرين يُجرِّدونهم من ملابسهم، واحداً تلو الآخر ويحتفظون بها وآخرين يصفقون، حتى أنا جرّدوني من ثيابي وأجبروني على الرقص معهم. لم يبق أحد من المرضي في الساحة إلا وجرّدوه من ملابسه. لم اشاهدهم سُعداء مثل هذه اللحظة من قبل، كانوا منشرحي الصدور، والبسمة الهستيرية على شفاههم حتى أنا كنت أشعر بسعادة غامرة. هتف أحد المرضى:

– أيها الرفاق، خلِّصوا زملاءكم من سجونهم؛ فهبّوا دفعة واحدة إلى قسم الذُهان في تدافع جنوني، حيث يوضع كل مجنون في غرفة

مغلقة بسلسة حديدية. كانوا يهتفون شعارهم " أنا مجنون، أنا حُر".... وكُل مَن وجدوه في طريقهم جرّدوه من ثيابه: ممرضين، أطباء، موظفين، عمال، حُراس... يقطعون أسلاك الهاتف، يكسّرون الكراسي... بفرح جنوني، لم يلتفت أحدهم لعُري الأخر. كانت هناك ثورة جنونية عارمة مباغتة، لم يتوقعها أحد. دخلوا قسم الذُّهان، حاولوا كسر أقفال غرف المرضى: بالأحجار، بالأحذية، بألواح الخشب وبكل ما وجدوه أمامهم... كان هناك مَن يجُر بيديه ومَن يعُض السلاسل. كانت الأحجار تتفتت والأحذية تتلاشى، والخشب يتكسّر، والغضب يشتد، يشتمون، يلعنون... وتحوّل فرحهم الجنوني إلى كره وغضب.

فشلوا أن يفتحوا باباً ليخلصوا واحداً من زملائهم. صاح المُلّقب بالطاهش:

– إلى الإدارة يا رفاااق، المفاتيح هناك.

هرعوا يتدافعون كتدافع الثيران البرية إلى مكتب الإدارة، وهم يرددون شعارهم واهتياجهم في أقصى حدوده. وجدو الباب مقفلاً، فدفعوه دفعة رجل واحد ودخلوا. وجدوا الأطباء وقد أُصيبوا بالدهشة والرعب، منزوين والمدير خلفهم. تقدم الطاهش نحو المدير، جرّه بقوة وبريق عينيه يرعبهم. هتف وهو يشد على ضروسه:

– ماذا نفعل بهذا الحقيييير؟ صاحوا صيحة رجل واحد، وهم في حالة هيجان:

– كهربـاء، كهربـاء... قـادوه نحـو غرفـة الجلسـات الكهربائيـة، وحشـود المرضـى خلفـه يمزقـون ثيابـه، بأيـدهم وأسـنانهم. كـان هنـاك دم يسـيل مـن ظهـره، فقد عملـت أظـافرهم فيـه عملهـا، وهنـاك مَـن كـان يعضّـه عضّـات قويـة وكـأنهم أرادوا أن يمزقـوه إربـاً. مـددوه علـى السـرير وثبتـوه بحبـال السرير الجلدية، وذهب أحدهم يصيح:

– أيـن التـاج يـا رفـاق. هيّـا أسـرعوا؟ إننـي أعرفـه لقد وضـعوه حـول رأسـي عدة مرات، كانوا يقولون لي: "سنضع التاج حول رأسك يا ملك".

ذهبـوا يفتشـون عنـه إلـى أن وجـدوا طوقـاً، يشـبه التـاج موصـلاً بأقطـاب كهربائيـة، ووضـعوه حـول رأس المـدير، وحشـوا فمـه بحـذاء بلاسـتيكي وفتحـوا التيـار الكهربـائي. عـض المـدير الحـذاء بقـوة حتـى أنقطـع أثنـاء الجلسات وهو يرتجف بقوة، وهم يهتفون: زِيدوه، زِيدوه...

أسـرع رجـال الأمـن إلـى الغرفـة، أطلقـوا طلقـات ناريـة فـي الهـواء، تفـرّق المرضـى، وذهبـوا يفتشـون عـن ملابسـهم. كـان كُـلٌّ مـنهم يلـبس ثـوب الآخـر، والـبعض عـاد إلـى غرفتـه عريانـاً. أمـا أنـا وجـدت ثوبـاً قصيراً وكنت أشبه بالمهرج، أضحك من نفسي ومما عمله المرضى.

كـان يومـاً لـم أتخيّلـه أن يحـدث، تـنفّس فيـه المرضـى الصـعداء، وعملـوا مـا أرادوه بُحرّيـة كاملـة. حزنـتُ كثيـراً ممـا قالـه الفيلسـوف العُطّـار "إن حريّة الكلمة الحقيقية في وطننا الكبير، لا تُقال إلا عند الجنون"

* * *

بعد أن قرأت أنا المحامي محمد سعد العبسي ما خطته يد عبد الفتاح سعيد، من هموم وأحزان، شعرت أن كلماته كانت متنفساً عن كبت دام سنيناً من حياته. شكّلتُ لجنة حقوقيه لتحقق في اختفائه من المصحة وكيف دخلها، وذهبت اللجنة تتطلعُ على ملفه في المصحة، فوجدت الآتي:

- الاسم: عبد الفتاح سعيد عبده الحكيمي
- العمر: خمسون عاماً

ثم أطلعت على الأدوية التي أستخدمها والجلستين الكهربائيتين، وطلبت اللجنة من الأطباء التوضيح أكثر مما كان يعاني عبد الفتاح، فأفاد الطبيب منير طاهر القدسي بقوله: "عند دخول عبد الفتاح، كان يُعالج من النرجسية، وفيما بعد عرفتُ أنه ليس كذلك. وجدته ذا موهبة نادرة وطبيباً نفسياً، حتى أننا أستعنا به في معالجة الحالات المستعصية في المصحة. تأسفتُ كثيراً حين علمتُ أنه هرب من المصحة، عند تمرد المرضى."

اتجهت اللجنة للتحقيق مع العاملين والممرضين والأطباء حول فقدان عبد الفتاح، فأفاد الجميع بعدم معرفتهم عن اختفائه. وجدت لجنة التحقيق الحقوقية، أن عبد الفتاح كان رجلاً موهوباً تجاوزت حواسه وقواه العقلية القدرات البشرية، وتأسفت على اختفائه ودونته هروباً من المصحة، بعد أن قدمت المصحة أدلّة على صحة ادعائها.

كم أحزنتني كلماته الأخيرة التي كتبها قبل اختفائه، وجدناها مع أحد المرضى في غرفته، مما يدل على تجاوزه لقراءة الأفكار إلى رؤية المستقبل:

أيها الموت تمهّلْ

دع من الوقت قليلاً

أخذ أشيائي التي أحببتها

قلمي، محبرتي، ذاكرتي،

أوراق ضوءٍ ورداءٍ.

قيل إن البرد يبدو قارصاً

في روضك المُترع بالصمت المهيبْ.

دع من الوقت قليلاً

أخذ باقة وردٍ من بساتيني

التي أرويتها قبل المغيب.

أودّع فيه عصافيري

على الأيكة في تلك الرُّبى

أخبرهم عن سفرٍ عمّا قريب.

حيثما الأحياء في جوف الثرى

أحكي لهم قصة الموتى على وجه العَراء

قِصة الشعب الذي مَنْ باع فيهِ واشترى ....

الاسم: أحمد قاسم علي العريقي

الجنسية: يمني

جهة العمل: المركز الوطني لعلاج الأورام- صنعاء

-شاعر، وقاص

-عضو اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين.

-عضو نادي القصة " المقة"

الإصدارت الأدبية:

١- مقامات العريقي

٢- غلطة قلم " مجموعة قصصية

٣- الرماد الأخضر " ديوان شعر" يتضمن شعراً غنائياً

٤- كرات الثلج " قصص من وحي التراث بشعر التفعيلة، باللغة العربية والإنجليزية

٥- رواية تعرية صادرة عن مقام للنشر والتوزيع- مصر

البريد الإكتروني: Ahmed.mkamat@gmail.com

فيس بوك: Ahmed Qasim